1988

1A

الجزء الاول

من

كتاب « زهرة التاريخ »

تأليف الشيخ عبد الوهاب النجار

المحامي الشرعي ومدرس الشريعة

الغراء بمدرسة البوليس

هذا الكتاب وضع مطابقاً لنموذج درس

التاريخ في الأزهر الشريف والمعاهد العلمية

الدينية الاسلامية التي على شاكلته

(الطبعة الأولى)

(سنة ١٣٢٦ — ١٩٠٨)

« ... محمد على بدرب المحمه بمصر »



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿وبعد﴾ فهذا كتاب في علم التاريخ وضع مطابقاً لنموذج التدريس فى الازهر الشريف والمعاهد العلمية الدينية الاسلامية التى على شاكلته اقدمه لاخوانى طلبة العلم الشريف والله أسأل أن ينفع به قارئيه انه أكرم مسؤول

عبد الوهاب النجار



التاريخ

التاريخ في اللغة هو تعريف الوقت — وقيل انه ليس بعربي محض (لسان العرب) وفي اصطلاح علماء هـذا الفن يطلق على أمور منها (انه تعيين وقت لينسب اليه زمان آخر سواء قبله أو بعده وذلك باسناده الى أمر مشهور من ظهور ملة أو قيام دولة أو حدوث أمر عظيم سماويا كان أو غيره مما يكون حصوله نادرا واتخاذ ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث التي يرغب في ضبطها ومعرفة أوقاتها كما كانت العرب تؤرخ بعام الفيل وغير ذلك مما اصطلحت عليه الامم في أوقات مختلفة — وأول من أرخ بالهجرة عمر رضي الله تعالى عنه

ومنها انه رواية حوادث الامم والدول ووقائعها وسير الملوك والعظماء وما كان لهم من الاعمال على ما هي عليه وهذا هو المراد هنا

(وثمرته) انه يوقفنا على أحوال الماضين من الامم في

أخلاقهم وعاداتهم والانبياء في سيرهم والملوك في سياستهم ليقتدي الانسان بالحسن ويجانب غيره - وبه يقف الانسان على الدول كيف ابتدأت وأحوالها كيف استقامت وكيف دب في جسمها دبيب الضعف المؤدي بها الى الدمار والبوار بتفرق الاهواء وتشعب أميال الرؤساء وميل المترفين الى لذاتهم واستغراقهم في ارضاء شهواتهم وانصراف العامة الى تقليدهم واتباع خطواتهم حتى يتأذن الله بهلاكهم بالانقراض اواستيلاء أمة أخرى لم تتدنس افرادها بما تدنس به هؤلاء أو باندغامها في جيل آخر يكون ذا صفات ارقى وأخلاق أصفى ويبين لنا ما يقوم به عظماء الرجال واطباء النفوس لايقاظ الهمم وتنبيه الاميال الى الفضائل وازعاج النفوس الى السير في طريق النجاح الذي يؤدى بالامة . الى ارتفاع شأنها وشد ازرها والاشادة بمجدها حتى يتم الاقتداء في ذلك بان يجتنب الانسان مظان الضرر في أعماله ويتوخى ما به يصلح شأن أمته ويكون من ورائه سعادتها ويسعى في درء ما عساها ان تكون مشارفة الوقوع فيه من أسباب الدمار. وقياس الامور

باشباهها ليحكم على الحوادث بما عرفه من أحكام نظائرها بعد الاحاطة بالحادثتين ومقارنتهما ببعضها مع النظر الى الظروف التي تحتف بكل منهما . ومتى تم له ذلك على اكمل وجه يكون حكمه صحيحا

وأيضاً فان لمعرفة الانسان تاريخ قومه ووقوفه على عاداتهم وما كان لهم من مجد ورفعة أثرا في انماء الاميال والعواطف الكريمة في النفس وفي تقويم الاخلاق ـ والسر في ذلك أن الانسان ميال بطبعه الى الوقوف على اخبار اوليته نزاع الى التبجح بفضائل آبائه والافتخار باعمالهم التى من شأنها أن ترفع رأسه بين القوم . وأنه ليرضي أن يلحق به الذم دونهم ـ واعتبر ذلك بما تراه في أقوال الشعراء التي يذيعونها في مدح الملوك والعظماء فانهم يحلون آباء الممدوح وأجداده من الفضائل وخلال الخير ما يرفعهم عن صفوف الاناسي ويجوزون بهم اقدار الملائكة ولا هم لهم الا احلال القول من نفوسهم محلا رفيعا حتى يتسنى لهم فتح مغالق الجيوب واستخراج دفائنها وأعتبر مثل ذلك أيضاً في مثل قول الفرزدق

فواعجبا حتى كليب تسبنى كأن أباها نهشل أو مجاشع
أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وفي قول المرحوم محمود سامي باشا البارودي

وانى امرؤ لولا الحوادث اذعنت
لسلطاني البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم
لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد نصل سيفه
تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وفي قول سيف الدولة الحمداني

وانا لقوم لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
أجل بنى الدنيا وأعلى ذوي العلا
وأعظم من فوق التراب ولا فخر

وقول السموءل بن عاديا

بنى لى عاديا حصنا حصينا وبئرا كلما شئت استقيت

وأوصى عاديا من قبل ان لا   تهـدم يا سموءل ما بنيت

ومن هذا المنفذ يصل علماء الاخلاق وساسة النفوس الى تقويم الاخلاق وتوجيه النفوس الى الخير وبث روح الاباء والشمم والتحلى بالاخـلاق الفاضله بذكر عشيرة الانسان ومجد آبائه ومفاخرهم ثم أشعار نفسه أن من كان وارث مجدهم لا يخلق به الا أن يسبقهم الى الفضل ولا يهدم مجدا اسسوا بناءه ولا يشوه فضيلة كانت حلية لهم - فاذا لم يكن طبيب النفوس عالما بالتاريخ . أنسد عليه هـذا الباب ويفقد وسيلة عظيمة من وسائل العلاج قل من لا تؤثر فيه

وبالجملة فان التاريخ مصباح من الماضى فى يد الشاهـد يضيء به المستقبل

وأما موضوعه فهو الاجتماع الانسانى وما يلحقه لذاته من الأمور الطبيعية التى لا تنفك عنه وما يعرض له من الأمور التى ليست من ذاتياته . فالأول نحو ان قيام الملك انما يتم للجماعة بما يكون لهم من العصبية وان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ونحو ان استحكام الملك داع الى الترف . وأما

الثانى فنحو ما يعرض فى أثناء الدولة من احتجاب السلطان وتجافيه عن لقاء الناس ومباشرتهم له وحجر بعض أرباب الدولة عليه واستئثارهم بالامر دونه ونحو ذلك

وفضله انه من أجل العلوم قدراً لتعلقه بالاجتماع الانسانى الذى لا يتم معنى الخلافة فى الارض على أكمل وجه بدونه والذى هو المقصود من قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة — وأيضاً فان العالم هو المقبل على شأنه المعارف بأهل زمانه — ولا يمكن أن يعرف أهل زمانه معرفة صحيحة من لم يحصل من أخبار الماضين والعلم بأحوالهم ما يجعله ذا بصيرة قوية تؤهله للحكم على أحوال جيله ومعرفة مصير أمرهم حكماً صحيحاً

وقد كان الاقدمون يبالغون فى اعتبار التاريخ - فقد قال شيشرون[1] انه شاهد الأزمنة ونور الحق وحياة الذكر ومدبر الحياة ورسول القدم . والذى يجهل ماجرى قبله من الامور بعد كالطفل وماذا تكون حياة الانسان اذا لم يحى

(١) مؤرخ وخطيب رومانى

منها ذكر الحوادث السالفة والاحقاب الغابرة — فتذكر الامور القديمة واختيار الامثلة منها للقدوة يجملان فى الكتابة طلاوة وصحة اهـ

وأما مسائله — فهي الاخبار عن الممالك والدول والامم والعظماء من الرجال من الانبياء والعلماء والحكماء والابطال واعلام الهدى لكل عامل في هذا العالم

وهذا العلم لا يعرف له واضع وقد عرفه أهل الازمان القديمة الجاهلية غير انه لم يكن له من المنزلة ماله الآن — ويعرف من أهل الثقة من المؤلفين القدماء هيرودوتس فهو اول من عنى بالتحقيق فى التاريخ وديودور الصقلى وغيرهما من المؤرخين القدماء

واستمداده من الكتب السماوية والاخبار المنقولة خلفا عن سلف والمشاهدة فى عصر المؤرخ — وقد عنى العلماء فى هذه الايام باستنطاق الآثار المتروكة عن القدماء كالعمائر والمبانى الثابتة بقراءة ماعليها من النقوش والرموز والكتابات ونحو ذلك

تقسيم التاريخ تقسيما نوعياً

— ثم العلماء يقسمون التاريخ الى قسمين :

(١) تاريخ مأثور وهو ما أخذ من الكتب السماويه كالاخبار الواردة فى التوراة عن بني اسرائيل وغيرهم ممن عاصرهم والاخبار التى تضمنها الانجيل وما قصه الله تعالى فى القرآن الكريم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من سير اخوانه من الانبياء تثبيتاً لفؤاده

(٢) تاريخ بشرى — وهو ما يرويه الناس من أخبار [illegible] والممالك والبلدان وتراجم عظماء الرجال ثم ان ما يتعلق من ذلك بالممالك والملوك والدول يسمى تاريخاً سياسياً

— ولا بد للمؤرخ الذى يعانى مسائل التاريخ من [illegible] بصر بأمور الدول والامم وحصتهم من الممالك والثروة والوقوف على ما كانوا يعانونه فى أزمانهم من العلوم والصناعات وما طرأ عليهم من العادات والأخلاق فى أيامهم الخالية وأطوارهم المختلفة ولا غنى له عن العلم بسنة الله تعالى فى تكوين الامم والدول وأثار الملل فى الخليقة وما يعرض الأمة فى

اطورها المختلفة وما تستدعيه الممالك المتباينة من الخطط (وظائف الدولة) وما يناسب حالهم من العلوم التى تمس اليها حاجتهم حتى تتكون له من معرفة هذه الامور ملكة بها يقتدر على معرفة صادق الاخبار من كاذبها بعرضه على أحوال تلك الأمة التى ورد الخبر بشأنها ويرد الحق فى ذلك الى نصابه بما تقرر عنده من طبائع العمران ومتى علم ان الخبر ممكن الوقوع ولا يشذ عن طبيعة العمران وأحوال تلك الامة رجع بعد ذلك الى تعديل الرواة أو تجريحهم

وقد يقع الكذب في التواريخ عمداً أو خطأ ولذلك مظان نذكر منها

أولا — جهل المؤرخ بحقيقة مايحدث به أو يراه وعدم عنايته بتحقيقه غير حاسب حسابا لمنتقد أو قارئ

ثانياً — جهله بطبائع العمران والبلدان فيظن ما يجوز حصوله في بلد يجوز حصوله فى اخر

ثالثاً — اعتقاد المؤرخ صدق الراوى له وثبته ممايروى وحسن ظنه به فيتلقى قوله بالقبول ويصرفه ماله من المكانة

فى نفسه عن محاكمة الخبر وعرضه على المعيار الصحيح الذى يميز قوى الاخبار من ضعيفها

رابعاً — اعتقاده ان شيوع مثل هذا الخبر يؤثر تأثيرا حسنا في نفوس الناس ويدعوهم الى عمل صالح أو نافع

خامساً — ارتباط الحادثة بسر من الاسرار التى يخشى ذلك الشخص أو أحد الملوك أو الرؤساء اذاعتها لما يدعو ذلك اليه من الغض من كرامته أو اسخاط الرؤساء أو العامة عليه

سادساً — تقرب الكتاب والشعراء وغيرهم من الرؤساء وأصحاب الجاه والمكانة بستر عيوبهم وتحسين القبيح منهم استبقاء لعنايتهم وإيثاراً لهم على الصدق الذى لم يؤلف عندهم

سابعاً — تقرب أمثال من ذكرنا بالحط من كرامة أعدائهم أو أعداء ملوكهم واشاعة أخبار السوء عنهم وغير ذلك من الدواعى التى تحول بين المرء وقلبه وتجرى قلمه فى تيار مضاد للصدق ـ واصدق شاهد على ذلك ما نراه من أحوال الملوك والرؤساء الذين عاصرناهم فانك تجد الكتاب يذيعون على صفحات الجرائد من باهر أوصافهم والاشادة بفضلهم

ماينظمهم فى صفوف الملائكة المقربين واذا كان ذلك الامير أو الرئيس عدوا لامة الكاتب أو له أرب فى الحط من كرامته ساق اليه من أنوع السباب واهدى اليه من أوصاف السوء مالو فرق على الايام لصيرها ليالى -- ولكن الحاذق اللبيب لا يقف عند حدود الالفاظ وما تؤديه عبارات الاخبار بل يزنها بميزان فراسته وينفذ الى مقاصد الكاتبين ويستخلص زهرة الحقيقة من بين اشواك المدح والقدح ويكسب بذلك الاجر الذى وعد به الرسول علياً بقوله لان يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم

ولا بد لنا من تنبيه القارئ الى مقدمة تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون فانها البحر الزاخر الذى جمع من الكلام على طبائع العمران وأسباب قيام الدول وسقوطها وطبائع الملك وما يعرض للدول من الخلل والقوة والضعف وأسباب ذلك وعلله والخطط الدينية والسياسية وغير ذلك من أمور العمران مايروى الغلة ويشفى العلة ولا غنى لمن يريد التعمق فى التاريخ والاخذ بحظ وافر من صحة النظر فى مسائله

عن تصفح ذلك الكتاب وتدبر عباراته

وبهذه المناسبة نقول ان هذه المؤرخ الكبير والمحقق العظيم والعالم الماهر لم يخل تاريخه من المغالط التي أخذ مثلها على المؤرخين الذين تقدموا والعصمة لله وحده

الديانات

الانسان أينما حل وكيفما وجد يشعر بضعفه بازاء ذى قوة عالية أليه يرجع فى اعتقاده تكوين الاكوان ولكن افراده يختلفون (بعد اثباته) فى أحواله وصفاته كما يختلفون فى طريق ارضائه والنزول عند ما يحب — ففريق يعتقد وحدانيته وتنزهه عن مشابهة المخلوقات وفريق يعتقد تعدده. وعلى هذا فالناس أما موحدون يعتقدون باله واحد متصف بصفات الكمال — وأما مشركون وهم الوثنيون الذين يقولون بوجوه عدة الهة أو أرواح ويقولون بتنزلها وحلولها فى الاجسام

فالموحدون هم المسلمون واليهود والمسيحيون وكلهم من الجنس الابيض وان كان يدين بهذه الاديان بعض من الاجناس الاخرى كأهل جاوا من الجنس الاسمر وأهل

السودان الغربي من الجنس الاسود وغيرهم وأما الوثنيون فهم بقية الاجناس الاربعة فالجنس الاصفر يعتنق بعضه ديانة بودة وبعض على مذهب كونفشيوس ويدين الجنس الاسمر بديانة برهمة وأما الجنس الاسود كقبائل الزنوج فانه ينتحل دينا منحط الآداب والتعاليم ويسمى الفيتشية وقسم التوحيد يشمل اليهود وهم ٩ ملايين منتشرون في جميع العالم وكتابهم التوراة — والمسيحيون[1] أتباع عيسى بن مريم عليه السلام ويبلغون نحو (٤٠٠) مليون وكتابهم الانجيل منهم الكاثوليك (٢٢٠) مليونا ويعتقدون ان بابا رومة خليفة المسيح ومنهم أيضاً الارثوذكس ويبلغون تسعين مليونا والبروتستان ويصل عددهم الى (١١٠) من الملايين وهذا المذهب حدث في القرن الحادي عشر الميلاد ـ ومن الموحدين أيضاً المسلمون وكتابهم القرآن الكريم ويبلغ عددهم نحو (٣٠٠) مليونا . منهم نحو (٢٠) مليونا من الشيعة وهم في

(١) المسيحيون وان كانوا يقولون بالآب والابن والروح القدس ولكنهم يعتقدونها الهاً واحداً

العجم والهند وما بقى فهم من أهل السنة وأصحاب المذاهب الاخرى كالدروز واليزيدية والاباضية وغيرهم من الفرق الكثيرة وأكثر هذه الفرق عددا أهل السنة

ومن الوثنيين البراهمة وهم نحو (١٢٠) مليونا بالهند ومعبودهم الاكبر برهمة ولهم معبودات أخرى دونه في المقام

ومنهم البوذية وهم يقولون بروح عالية في العقل الكامل المتناسخ في ذات بوذه (فيلسوف مات سنة ٥٤٣ ق م) وبارواح أخرى تنزل على الارض وتتشكل باشكال بشرية ورئيس الدين عندهم يسمى (دلائى لاما) ويقيم ببلاد التبت ويعتقدون انه اله في شكل انسان ويدين بهذا الدين اكثر من (٤٠٠) مليون وهم غالب أهل الصين والتبت واليابان وكوريا — وقد ظهر أحد العلماء الذى يسمى كونفوشيوس وهذب مذهب بوذا وأمر بعبادة الخالق جل وعلا وأرواح الكواكب والاجداد وقد مات هذا الفيلسوف سنة ٤٧٩ ق م — وتبع رأى هذا الحكيم العلماء المتنورون من أهل الصين — ولا مانع من ان يكون كل من بوذا وكونفوشيوس

من الانبياء الذين جاءوا بالتوحيد وعبادة الحق سبحانه وتعالى ولكن الاخذين بدينهم حرفوا مذاهبهم وادخلوا فيها ما ليس منها مثل عبادة ارواح الكواكب وغيرها كما حصل لكثير من الديانات التى طال عليها القدم ويكونان داخلين تحت قوله تعالى في حق الانبياء ومنهم من لم نقصص عليك

ومن الوثنيين المجوس عباد النار والصابئون عباد الكواكب ويوجد هذان النوعان ببلاد فارس ولا يزيدون عن (٧٠٠) الف

ومن الوثنيين الفيتشيه ـ ومنهم خنن امر بتقديس أشياء سافله كالصخور والاشجار وبعض الحيوانات والنباتات واتباعه نحو (٥٠) مليونا بافريقية وآسيا

الحكومات

اتفقت كلمة الحكماء وأرباب البصر بالعمران على هذه الكلمة (الانسان مدنى بالطبع) ويعنون

بذلك أن ميله الى الاجتماع ببنى جنسه أمر ذاتى له . وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه على حالة لا يمكن معها بقاؤه منفرداً فهو مضطر الى الازدواج الذي به حفظ النسل وبقاؤه وهذه أقل حالات الاجتماع وأولها وجوداً - ولما كان أقل من كثير من الحيوانات العجم قوة وليس له مالها من السلاح الطبيعي الذى تدفع به العوادي والكواسر من سواها احتاج الى الاجتماع بأمثاله للتعاون على أعداد الأسلحة الصناعية حتى يذللها لسلطانه ويسخرها لقهره ويتخذها عدة لتسهيل حاجات المعيشة ونحو ذلك - وكلما زاد الاجتماع البشرى زادت الحاجة الى المصنوعات المتنوعة التى يستعملها الانسان فى ضرورياته وحاجياته . وحاجته الى المصنوعات انما هى الحاجة الى صانعيها وهم أبناء جنسه

ولما كان الانسان مطبوعاً على الأثرة وحب الاستبداد بما فى يد غيره كان التنازع بين البشر من ضروريات الاجتماع فلا بد من سلطة قوية توقف كل انسان عند حد لا يتعداه وخطة لا يتخطاها حتى يأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم

وأموالهم ويتمتع كل انسان بثمرة كده وعمله لمصلحة المجتمع الذي يرتبط به وتتصل مصالحه بمصالحهم ـ وهذه السلطة تختلف حالتها بحسب الحال التي استقر عليها أمر كل جمعية من جمعيات بني آدم ـ فتكون في الجمعيات الصغرى كالاجتماع البدوي رياسة بسيطة تلقي الى رئيس ذي منعة من قومه قد قتل الدهر تجربة وخبرة ودان له القبيل بالسمع والطاعة ومثل هذا يجتزئ في الغالب بما حباه قومه ومن التصق بهم من الاذعان ويرى ذلك منتهى ماينبغي أن يعطاه فلايفرض على أحد ضريبة ولا يسومهم مالا ـ وكلما كان الاجتماع أرقى وحالة القوم الصق بالمدنية ودواعي السرف كان حال القائم بالسلطة على نسبتها من القهر والغلبة واتساع الحال في المصرف وما تستدعيه رعاية أمور الأمة من الاستعداد والمدافعة والتحصين والاستنابة في الأمور الهامة

ولما كان القائم بالسلطة العليا غير معصوم من الخطأ في الاحكام وما يقع من المنازعات بين الافراد والجور منه غير مأمون ـ عنى العقلاء من كل أمة راقية بوضع القوانين والقواعد

الملائمة لحال كل جمعية وعاداتها لتكون الأساس الذى يركن اليه الحاكم في حكمه وللأمـة عليه حق المراقبة بعين اليقظ الحذور حتي اذا حاد عن النهج السوى ذات اليمين أو ذات اليسار استبدلوا به غيره ممن تطمئن نفوسهم اليه

ولما كان الواضعون للقوانين ليسوا بمعصومين من الزلل والميل مع الهوى ولم يمتازوا في نظر كثير من أفراد الأمة بما يرفعهم الى المقام الذى يجعل كلمتهم تقابل بالسمع والطاعة ظاهراً وباطناً ـ وكان مع ذلك احترام أمر القانون فيما أمر واجتناب مانهي عنه لايكون الا فى المواطن التي يجد الشخص نفسه محاطاً بالناظرين الى عمله . ولكنه اذا أنس من القوم غفلة لايجد في نفسه حرجاً من مخالفته وانتهاك حرمه لانه في أمان من وقوع العقاب عليه

لهذا كله اقتضت الحكمة الالهية أن يرسل الله تعالى رسله لهداية الناس الى أمرى معاشهم ومعادهم ـ فضلا منه ومنة لان الانسان اذا علم ان هذا الأمر من الله الذى خلقه وسواه وصوره وشق سمعه وبصره يسلس قياده ويكبح

جماح نفسه وتخشع جوارحه ولا يجد فى نفسه النزوع الى المكابرة كما يجد ذلك في أحكام المخلوقين واذا أقدم على فعل منهي عنه وخطر في نفسه أن له إلهاً يعلم ماتوسوس به نفسه وانه ملاق جزاء ماعمله من خير أو شر في يوم تبلى فيه السرائر وتشخص القلوب والابصار يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ـ هنالك تنكسر حدة النفس ويقلع الانسان عما سولت له نفسه من معصية ـ فكل جمعية خلا نظام سلطتها من الدين لاتبلغ الغاية من الكمال بل يكون نظامها ناقصاً والله يحكم لامعقب لحكمه

ومن المأثور من كلام بهرام بن بهرام قوله أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب للخلقه نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك ـ ومن كلام أنوشروان في هذا المعنى الملك بالجند والجند بالمال والمال

بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه . ومن كلام أرسطو العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم

واعلم ان للأمم في تكونها واجتماعها وقيام الملك فيها وتغلبها على من عداها من العصب والجمعيات الأخرى . وارتقائها في معارج المدنية بعد ما كانت عليه من حال البداوة وانحطاط شأنها بعد رفعتها أو تلاشيها وزوال الملك عنها أحوالا تتعلق بنفس الأمة وأحوال القائمين بالرياسة فيها وبمقدار قوتها التي قامت بها . وتختلف الأمم في أنواع الحكومات اختلافاً كلياً بحيث لا تكاد أمتان تتحدان فى شكل الحكومة وذلك تبعاً للعادات والتقاليد التي ترثها الأمة . وما يقتضيه الوسط الذي تعيش فيه ودرجة ارتقائها

ويمكن ارجاع أنواع الحكومات الى نوعين أصليين وهما الملكيه ـ والجمهورية

أما الحكومة الملكيه فهي ما كان زمام الحكم فيها بيد ملك واحد سواء كان مقيداً بنظامات أو مطلق الارادة وأما الجمهورية فهي التى يكون الحكم فيها للامة بواسطة مجالس تنتخبهم لادارة شؤون الحكومة ومصالحها

والحكومة الملكية تنقسم الى ثلاثة أقسام

(١) ملكية استبداديه ـ وهى التى يكون الحكم فيها للملك دون أن يكون له قانون يرجع اليه بل كلمته هى القانون فهو الذى يشهر الحرب اذا شاء ويعقد الصلح اذا رضي ويضرب الضرائب ويتصرف فى أموال الجبايه كما أراد ويسن القوانين على مايهوى ويلغيها بلا معارض وهذا النوع من الحكومة الملوكيه لا يوجد الا في الأمم التى على الدرجة السفلى من سلم الحضارة

(٢) وملوكية مطلقة وهى ما كان للملك نوع من الحرية في تدبير شؤون المملكة وكان مرتبطاً فى قليل من

الأمور بقوانين شرعية أو وضعية لايخرج عنها الى هواه ويوجد هذا النوع في الممالك الشرقية ولكنه أخذ يتلاشى باعلان الحكومة العثمانية الدستور [1] وباستعداد الصين فى هذه الأيام للدخول من هذا الباب وربما دخلت حكومة ايران منه أيضاً

(٣) ملوكية نظامية وتسمى مقيدة أو دستورية . وهي التي يكون فيها الملك خاضعاً لنظام تلك الأمة الموضوع بواسطة نوابها وهذا النوع أقرب الى الجمهورية اذ الامة في الحقيقة هي الحاكمة دون الملك

وتنقسم الجمهورية الى قسمين

(١) حكومة الأعيان وتسمى ارسطوقراطية وهي التى تحصر الرياسة العامة فيها فى أسرة أو أكثر وهذا النوع لا يوجد الآن

(٢) وحكومة الجمهور وتسمى ديموقراطية وهي ما كان حق الرياسة فيها لكل فرد اختارته الأمة بلا تمييز ومن هذا

---

(١) افتتح المبعوثان يوم طبع هذه الصحيفة

النوع جمهورية فرنسا وسويسرا وجمهوريات أمريقا ويوجد نوع يسمى حكومة تعاهدية . وهى أن تؤلف المملكة من حكومات أو ممالك صغيرة تشترك في الأمور الخارجية مع استقلال كل حكومة بتدبير شؤونها الداخلية طبق قوانين تناسبها كالممالك المتحدة بأمريقا والمانيا بأوربا

﴿ ارتباط التاريخ بالجغرافيا ﴾

يوجد ارتباط وثيق الاسباب بين التاريخ والجغرافيا . فلا يقف على التاريخ وقوفاً تاماً من لم يحصل على حظ وافر من الجغرافيا

والسبب في ذلك أن كل أمة من الأمم تنال قسطاً من العمران . تمثل دوراً من رواية الاجتماع البشرى الذي هو موضوع التاريخ . وهذه الأمة . لابد لها من مكان تكون به للاقامة فيه وترتفق بفجاجه ونواحيه وعلى نسبة مايكون بذلك المكان من خصب التربه ووفرة وسائل الاستعمار من معادن وأنهار وبحار ووجدان المادة الأولية للصناعات المختلفة تكون حصتها من المدنية . وكلما اشتدت حاجة

جيرانها من الامم وغيرهم ممن تربطهم بها روابط التجارة وتصريف الحاصلات والمصنوعات اليها كلما زاد ذلك في ثروتها واكسبها قوة وشوكة ودفع بافرادها الى اتقان الاعمال التي هي مكاسبهم ومصدر أرزاقهم وكل هذا من مباحث الجغرافيا وبالجملة فلا يقف المؤرخ وقوفا تاما على أحوال الامة التي يبحث فيها الا بعد الاحاطة بجغرافيتها ومعرفة طبيعة البلاد وما يمكن أن تحصل عليه من وسائل الارتقاء المتوفرة لديها — فبحث المؤرخ من هذه الناحية بحث فى جغرافيتها وبحث الجغرافى في هذه الأمور وترتيب الحكومة ومناصبها ونحلة أهلها وثروتهم ولغتهم وأخلاقهم وعاداتهم كل ذلك بحث فى تاريخهم فكل من المؤرخ والجغرافى يخدم الآخر فى علمه . فالمنفعة بينهما متبادلة ورب ساع لقاعد

مصر

هي البلاد التي تحد شمالا بالبحر الابيض المتوسط وجنوبا بشلال اسوان وما حاذاه من الاصقاع الجنوبية وشرقا بالبحر الاحمر وغرباً بصحراء ليبيا . ولم يعلم بالتحقيق في أي زمن

استوطنها أهلها لتوغل ذلك الزمن في القدم ولم يدر من أي طريق وصلوا اليها

وعلماء التاريخ في هذا فريقان : أحدهما يقول ان طائفة من ذرية نوح ذهبت الى بلاد الحبشة عن طريق باب المندب . فبعضها أقام بتلك الناحية وهم الاحباش . والبعض الآخر وصل الى مصر تدريجا تابعين في سيرهم مجرى النيل ثم أقاموا في هذه البلاد وعمروها . ويستدلون على رأيهم هذا بالمشابهة فى بعض الالفاظ بين اللغة القبطية القديمة والحبشية وفي كثير من العادات والمعابد القديمة

ويقول فريق آخر[1] ان فريقا من ذرية نوح هاجرو من أسيا ووصلوا الى مصر من طريق برزخ السويس واستوطنوه وانتشروا فى ارجائه على مر الزمان — ويعللون المشابهة في اللغة والعادات والعبادات بين المصريين والاحباش بان ذلك طارىء من اقتباس الاحباش ذلك من المصريين الذين هاجروا اليهم في أزمنة مختلفة وان المشابهة فى الخلقة

---

(١) هو القول الراجح عند علماء التاريخ

ظاهرة بين المصريين وسكان أسيا من الساميين

﴿ تاريخ مصر القديم ﴾

كان تاريخ مصر القديم مجهولا عند المؤرخين وكانت ابحاثهم فيه مبنية على الحدس والاسترسال فى متابعة الخيال والاستنتاج الذي لم تنضجه الروية . فاذا كان ما يسمع من تاريخهم أشبه بالخرافات والاساطير التي يولع بها من لا يرون للتثبت مما يروون قيمة . ولا يقيمون لصحيح الانباء وزنا

وقد اجتهد الباحثون فى تاريخ الشرق فى الوصول الى معرفة الخط المصري القديم فكانوا يصيبون تارة ويخطئون الى أخرى الى ان جاء العالم شامبيلون الفرنساوى واهتدى الى حل رموزها وفك معماها وتبعه في هذا السبيل كثير من طلاب اللغة المصرية القديمة فى تذليل هذه الطريق فرافقهم التوفيق فيما راموه . وبذلك انجلى لهم شيء كثير من تاريخ مصر القديم بترجمة كثير مما دونه المصريون على جدران المعابد والمسلات والمقابر وصحف البردى وغير ذلك . ومع هذا فلم يزل كثير من التاريخ المصرى مجهولا

-ﻫ الاسر الملوكية بمصر وتقسيمها ﻫ-

ان أول مملكة وجدت فى مصر كانت قبل الهجرة بـ ٥٦٢٦ سنة وقد حكم مصر احدى وثلاثون اسرة فى مدة ٤٨٣٧ ثم دانت بالطاعة لحكم دولة البطالسة ثم لحكم الدولة الرومانية التى أزال الاسلام حكمها عن مصر سنة ١٨ للهجرة

وتنقسم الاسر الملوكية فى مصر الى ثلاث طبقات

الاولى احدى عشرة اسرة من سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة الى سنة ٣٥٢١

الطبقة الثانية الوسطى وهى ست اسر من الثانية عشرة الى السابعة عشرة وحكمها من سنة ٣٥٢١ الى سنة ٢١٦٠

الطبقة الثالثة الاخيرة وهي أربع عشرة اسرة من الثامنة عشرة الى الحادية والثلاثين من سنة ٢١٦٠ الى سنة ٧٨٩

-ﻫ تقسيم تاريخ مصر العام ﻫ-

ينقسم تاريخ مصر العام الى ثلاثة أقسام

القسم الاول الجاهلى وهو من ٥٦٢٦ قبل الهجرة الى

سنة ٢٤١ قبل الهجرة أيضاً وهي السنة التي صدر فيها أمر ضيودس بمحو الدين الوثني من مصر وأن يحول المصريون إلى الدين المسيحى

القسم الثانى المسيحى وهو من سنة ٢٤١ قبل الهجرة الى سنة ١٨ هجرية وهي السنة التى فتح فيها عمرو بن العاص مصر

القسم الثالث الاسلامى وهو من سنة ١٨ هجرية الى الآن

عبادة المصريين وعاداتهم

كانت الامة المصرية صابئة تعبد الكواكب كالشمس والشعرى اليمانية وكانوا يعبدون الحيوانات المختلفة كالثور والتمساح وابن آوى والهر ولم يكن كل ذلك في زمان واحد ومكان واحد . فقد بين التاريخ انه كان لكل قسم من الاقسام معبود خاص سوى المعبود العام للمملكة فقد كانت مدينة طينة تحترم المعبود (انحور) في حين ان أهل طيبة يعبدون (امون رع) (ومنتو) وهذا الاخير كان معبودا عاماً لاهل قسم (اس ـ ويوسبوايتس) طيبة وخاصا لاشهر

مدن هـذا القسم وهى ارمنت وكان اهـل قسم صاالحجر يعبـدون نحوت (المريخ) ويعبـدون معبودة أخرى تسمي ست وربما أولع ملك من الملوك بعبادة شيء من الاشياء وأمر بابطال عبادة آخر وكانوا يجعلون لـكل معبود من المعبودات صورة يقدمون لهـا القرابين ويقومون بعبادتهـا كالشمس والشعرى اليمانية والمريخ والشيطان وأما الاشياء التي كان فى قـدرتهم الحصول على أعيانها كالثور فكانوا يقدمون لها العبادة مباشرة

وعلماء التاريخ على ان كهنـة المصريين وقسوسهم كانوا على بينة من معرفة الله سبحانه وتعالى بصفات الـكمال اللائقة به وكان ذلك سرا من الاسرار عندهم لا يبوحون به لمن ليس من طائفتهم . وانما كانوا يلهون العامة بهذه المعبودات تأييدا لسلطتهم وليستمر لهم دفع الاتاوات التي يجبونهـا من العامة وكان من عاداتهم الحـكم بالقتل على قاتل النفس . وعلى الحـالف باطلا لدى المحا كم . وبالجلد مع المنع من الأ كل ثلاثة أيام على كل من أخفى عن الحـكومة جناية يعلمها وعلى

المدعى زوراً بما كان يحكم به على المدعي عليه لو ثبتت دعواه ٠ وعلى كل جنـدي فر من صفوف القتال بالفضيحة على ملأ من النـاس ٠ وبجلد الزاني . وجدع أنف الزانية ٠ وبسـل لسان من يطلع العدو على أسرار الوطن ٠ وبقطع يمين من ينقص الكيل أو يخسر الميزان ٠ أو يقلد خاتم الملك ٠ وباحراق قاتل أحـد أبويه وكان واجباً على كل مصرى أن يثبت اسمه ومورد تكسبه على رأس كل سنة شمسيه . فاذا ظهر انه يأكل من وجه غير مشروع ٠ أو غير محترف مع القدرة على ذلك حكم عليه بالقتل

وكان لهم أربعـة أنواع من الاعياد النوع الاول عيـد رأس السنة وعيد السنة الكبيسة وعيدالسنة البسيطة والنوع الثـانى عيد الحر الأكبر فى أمشـير وعيد الحر الاصغر فى برمهات والنوع الثالث عيد الأيام فكانوا يعيدون فى الاول و٢ و٤ و٥ و٨ و١٧ و٢٩ و٣٠ من كل شهر ولهم أعياد كثيرة للمعبودات وكان من عاداتهم أن يرقوا المريض بالرقى وقد عرفوا المداواة بالعقاقير

﴿ الاسرة الاولى ﴾

كانت الأمة المصرية فى العصور القديمة منقسمة الى أسر وعشائر متفرقة ترجع كل طائفة منها الى حكم الكهنة ورجال الدين الذين كان لهم القول الفصل والحكم النافذ على من سواهم. غير أن تدرجهم فى العمران دعا الى وجود طائفة أخرى من ذوى البأس والنجدة لرد غارة المعتدين على البلاد المصرية يرزقون من كد الفلاحين وأرباب الاعمال من العامة

فكان رجال الدين يقومون بجباية الاموال من الدهماء ويؤدون الى رجال الحرب كفايتهم ويصرفون مايبقي من ذلك على انفسهم فكان العامة يتعبون لراحة هذين الصنفين ويشقون لسعادتهما — غير ان زيادة العمران وارتقاء القبيل فى المدنية مما له أثر فى نزوع الامم الى أباء الضيم وانبعاثها الى نزع الاغلال التى عليها. لذلك قام (منا) من أهل طينة واستمال اليه رجال الحرب حتي وثق منهم بمتابعته ثم نزع الى مخالفة الكهنة ورجال الدين وخلع طاعتهم . ولما كانت سيطرة

خصومه على نفوس العامة قوية رأى أن يستريح من الحجاج واللجاج فترك طيبة ونزل بمن اتبعه في الجهة الشمالية وأسس مدينة منف التي في مكانها الآن البدرشين وميت رهينه وأحاطها بجسر القشيشة وحول مجري النيل عن صحارى ليبيا فصار ينتفع به جميعه بعد أن كان يذهب قسم عظيم منه في تلك الصحاري بدون فائدة وأبقى رؤساء القبائل في مناصبهم وأقام معبدا (لبتاح) في منف وكسر شوكة أعدائه من أهل ليبيا واتسع عمران منف وصارت دار العلم والحضارة آلافاً من السنين ومات منا بعد أن حكم نحو اثنتين وستين سنة وهو أول ملك قام فى بني الانسان على ماهو معروف الآن وهو رأس الأسرة الأولى الطبنية التي استمر حكمها ٣٠٥ سنة ولم يكن لمن بعده من ملوك هذه الأسرة من الآثار والمآثر مايستدعى الاطالة فى شأنهم سوى ما كان لابنه (تِتا) من الاشتغال بعلم التشريح وقد ألف فيه رسالة استمد منها أطباء قدماء المصريين وما كان من (ونيفس) رابع ملوك هذه الأسرة من بناء هرم (كوكمه) بسقاره . ولتتابع الوباء

والفتن في البلاد المصرية انتهى الملك من هذه الأسرة بانتهائها والله يحكم لا معقب لحكمه

﴿ الأسرة الثانية الطينية ﴾

يظن علماء التاريخ أن بين هذه لاسرة والتي قبلها قرابة كان بسببها انتقال الملك من الأولى الى الثانية . وقد ولى الملك من هذه الأسرة ثمانية ملوك أو تسعة وكل مايعرف من آثارها ايجاد قانون يقضى بوراثة البنات للملك اذا لم يوجد في الأسرة الملوكية رجل وقد روج ثالثهم (بينوثريس) الاعتقاد بأن سلطة الملوك على رعاياهم هى حقوق وجب عليهم أداؤها اليهم نيابة عن المعبودات وزعم أن دماء المعبودات سرت في عروق جسمه . ولقب نفسه بابن الشمس الى غير ذلك مما جعل الأمة ترفع ملوكها الى رتبة الآلهية ودام هذا الأمر السيئ الى عهد الرومان . وأما المصنوعات التي وجدت لهذه الأسرة فتظهر عليها آثار البداوة لعدم اتقانها ويقول علماء التاريخ ان الملك (منا) لم يتيسر له أن يجعل سكان مصر أمة واحدة بل أخضع رؤساء القبائل وجعلهم حكاماً

لقبائلهم وقد كانوا يستقلون بالحكم في بعض الاحيان . وقد وجد منهم ملوك معاصرون للملوك من أعقاب (منا) ولكنه بتوالى الأيام تلاشت تلك الممالك الصغرى وصار سكان مصر أمة واحدة فى زمن الاسرة الثانية لاستحكام طبيعة الملك فيها وذلك يدعو الى الانفراد بالمجد والقهر والغلبة

﴿ الاسرة الثالثة المنفية ﴾

انطوى العصر الزاهر الذي كان لمدينة طينه بانطواء حكم الكهنة وأخذت مدينة منف في الرقي والعمران في عهد الاسرة الثالثة والرابعة والخامسة وصارت مهد العلم ومنبع العرفان وقد حكم ملوك الاسرة الثالثة ٢١٤ سنة تولى الملك فيها تسعة من الملوك

وفي مدة هذه الاسرة انتشرت العلوم واتسعت دائرة الفنون والصناعات في أنحاء البلاد المصرية وارتقى فن الكتابة واتقنت صناعة قطع الاحجار ونحتها واتسع علم الطب وازدادت ثروة المملكة واتسعت مبانيها ومن آثار هذه الاسرة تمثال أبي الهول ومنها الهيكل الموجود بالجهة القبلية

من اهرام الجيزه وهو مبنى من الصوان وحجارته بالغة من العظم حدا يحار معه الانسان في كيفية نحتها ونقلها وذلك يدل على المهارة فى الصناعات والحيل فى رفع الاثقال

وفي مدة هذه الاسرة أيضاً اشتغل المصريون باستخراج النحاس والفيروزج من جهات الطور ومن أشهر ملوكها الملك (نخروفيس) وهو أولهم والملك (سنفرو) وهو آخرهم

﴿ الاسرة الرابعة المنفيه ﴾

حكمت هذه الاسرة ٢٨٤ سنة وعدد ملوكها ١٤ ومن أشهرهم الملك خوفو أولهم وهو باني الهرم الاكبر وهو من أعاجيب الدنيا وكان عدد العمال فى بنائه مائة ألف عامل يبدلون فى كل ثلاثة أشهر . وقد استمرت عمارته ثلاثين سنة عشرة منها فى توطيد أرضه وبناء حجراته وتسوية الطريق الموصلة من النيل اليه وعشرون سنة في تشييده وارتفاع هذا الهرم خمسون وربعمائة قدم وثلاثة ارباع القدم وضلع قاعدته سنة وأربعون وأربعمائة قدم وحجارته ضخمة . وبناء هذا

الهرم وغيره من الاهرام التى وجدت لهذه الاسرة يدل على ملك ضخم وعمران عظيم وارتقاء فائق وثروة واسعة وعلم جم بالهندسة ومهارة فى رفع الاثقال. ومن أشهر ملوكها أيضاً الملك خفرع صاحب الهرم الاوسط والملك منكررع صاحب الهرم الاصغر. ولم يتم هذا الملك هرمه بل أتمته الملكة نيتوقريس من الاسرة السادسة ـ وقد اختلف المؤرخون في شأن بناء الاهرام هل كان ذلك بظلم الملوك للرعية بتسخيرهم فيها أو كان ذلك بمحض الرغبة . ولكل برهان على مايدعيه، غير أنهم أجمعوا على أن باني الهرم الثالث لم يكن ظالماً بل كان خيراً محباً للدين

أما هذه الاهرام فكانت تبنى بقصد أن تكون مقابر لهؤلاء الملوك بعد موتهم. وقد وجدت جثة الملك منكورع فى تابوت من حجر الصوان داخل هرمه وقد نقله الانجليز الى بلادهم فغرق التابوت عند البرتوغال ونجت الجثة وغطاء التابوت

﴿ الاسرة الخامسة ﴾

حكمت هـذه الاسرة ٢١٨ سنة وعدد ملوكها عشرة وكانت قاعدة الملك فى عهدها جزيرة أسوان وقـد حافظت مصر فى مدتها على ما كان لها من صناعات وعلوم وأولع الناس بعلم الادب ومن آثارها عدة اهرام بسقارة وأبى صير ومقبرة رجل يدعى (تى) على يسار المدفن المعروف (بيربه أبيس) بسقارة وهذه المقبرة بها رسوم دقيقة الاشكال محكمة الصنع ومن أشهر ملوكها (ددكاع) وهو تاسعهم و (أوناس) وهو العاشر

﴿ الاسرة السادسة ﴾

حكمت هذه الاسرة ٢٠٣ سنة وملوكها ستة وكان مقر الملك جزيرة أسوان ـ وفي عهد هذه الاسرة انحط قدر مدينة منف لوجود مقر الملك في سواها ـ وكانت همة ملوك هذه الاسرة منصرفه الى استخراج المعادن وغزو بلاد الشام والنوبه وادخال قبائلهما في طاعة ملوك مصر وبناء الاهرام والسفن الحربية (وفى مدتها وجدت أول سفينة حربية) واتقان صناعة التصوير اتقانا لم يسبق له مثيل فيما تقدمها

من الدول ومن أشهر ملوكها (مريرع) وهو ثاني ملوكها والملكة (يتتوقريس) وهى آخرهم وهى التى أتمت بناء الهرم الثالث ودفنت به

﴿ الاسر السابعة والثامنة المنفيتين والتاسعة والعاشرة الاهناسيتين ﴾

هذه الاسر الاربع لم يعلم تاريخها الى الآن حق العلم ولا مدة كل أسرة منها ويظن أن لها آثاراً فى ميدوم واهناس ومدخل وادي الفيوم وغاية مايعرف عنها أن السابعة والثامنة كانتا فى منف والتاسعة والعاشرة كانتا فى اهناس وان انتهاء الأسرة العاشرة كان فى سنة ٢١٠٥ قبل الهجرة وقامت بعدها الأسرة الحادية عشرة

﴿ الأسرة الحادية عشرة ﴾

حكمت هذه الاسرة سنة ٢١٠٥ قبل الهجرة ومدة حكمها ٤٣ سنة وملوكها ستة عشر ملكا وليس لهذه الاسرة من الآثار مايستدل منه على ارتقاء الامة فى زمنها سوى انه فى أيام(سعنخ كارع)حصل اهتمام بترتيب المواصلات بين

مصر وبلاد العرب وذلك يدل على اتساع التجارة وزيادة الثروة

الطبقة الثانية

والاسر التي تولت الحكم فيها هى

﴿ الاسرة الثانية عشر ﴾

ابتدأت هذه الاسرة بمصر جديد استقبلته مصر فاجتمعت تحت حكم ملك واحد بعد ان كان لها ملوك متفرقون وكان مدينة طيبة دار الملك وقد رد (امنحتب) الاول أول ملوكها غارة أقوام ليبيا وآسيا والنوبة الذين اجتمعوا لقتاله قرب منف وقد سار على أثره غيره من الملوك فارتقت الامة ارتقاء فائقاً ومن أثارها الباقية الى الآن قصر (لا بيرانتا) عند بحيرة قارون وبالجملة فكان عصر هذه الاسرة عصر تقدم وارتقاء في الثروة والعلوم والصناعات والتجارة والفنون الحربية ومن أشهر ملوكها (امنمحعت) الاول والثانى والثالث والرابع (وأوسرتسن) الاول والثانى والثالث

﴿ الاسرة الثالثة عشرة ﴾

أكثر أسماء الملوك فى هذه الاسرة (سبك حتب) و (نفر

حتب) وعدد ملوكها سبعة وثمانو ملكا ولم يعلم زمن ملك كل ملك وغاية ماعلم من أمرها ان الامة المصرية بقيت محافظة على مالها من قوة وعمران ومدنية وكان مقر الملك مدينة طيبة

﴿ الاسرة الرابعة عشره ﴾

كانت هذه الاسرة في مدينة (سخا) بمديرية الغربية وعدد ملوكها ستة وسبعون ومكثت أربعمائة وأربعة وثمانين سنة ولم يكن للملوك هذه الاسرة من الآثار مايخلد ذكرهم وكان انقراضها بسبب عصيان الرعية على ملوكها وتوالى الفتن

﴿ الاسرة الخامسة عشر ﴾

كان مقر هذه الاسرة في طيبة وفى مدتهم أغار العمالقة وهم العرب الرعاة[1] على مصر واستولوا على الجهات الشمالية منها واتخذوا مدينة (صا) قاعدة لملكهم وانتشر كثير منهم في البلاد المصرية وانتحلوا دين المصريين وعاداتهم وتزيوا بزى الفراعنة وحذوا حذوهم في سياسة الملك وفي أيام ملك الفراعنة من

(١) كان المصريون يسمونهم شوس أى نهابين ويعبرون عن ملوكهم بلفظ حق شوس أى ملوك النهابين فترجمها اليونان (هكسوس) وهو الاسم الشهير الآن

الرعاة كان دخول ابراهيم عليه السلام أولا ثم وجود يوسف عليه السلام بمصر واستيطان يعقوب رذريته فيها

وكان بين ملوك الرعاة والملوك المصريين حروب في أزمنة مختلفة وكثيراً ما كان بشمال مصر ملك من الرعاة وبجنوبها ملك مصرى كما سيجىء

﴿ الاسرة السادسة عشرة ﴾

هذه الاسرة من الملوك الرعاة وقد استخلصوا لانفسهم ملك مصر وقد هاجر الى مصر فى مدتهم كثير من أهالى الشام والعرب وكان هؤلاء الملوك يكرمونهم وقادتهم ويواسونهم للاعتزاز بهم واتخاذ الجند منهم وقد نشبت عليهم الحضارة فيها وقد فنى كثير منهم في الامة المصرية وفي تلك المدة جاء يوسف الصديق عليه السلام الى مصر وقصته معروفة فى الكتاب الكريم وجاء أبوه واخوته ـ ويدل على وجود يوسف في ذلك العصر ماوجد فى احدى مقابر قرية الكاب ضمن حكاية لبعض أقارب أحد أولئك الملوك من قوله (ولما حصل القحط مدة كثيرة من السنين كنت أعطي

القمح لاهل المدينة في كل مجاعة

﴿ الاسرة السابعة عشرة ﴾

كان في مدة حكم هـذه الاسرة حكومتان وذلك ان لامة المصرية كانت فى مبدأ أمر الرعاة عاجزة عن مكافحتهم واستخلاص الملك منهم لمكان قوتهم ولكنهم صبروا حتى انغمس أعـداؤهم فى الترف وذهبت المنعة منهم وقل فيهـم الاسـتعداد الحربى فنزعوا الى مقاومتهـم وانتهى الامر بوجود مملكتين احـداهما مصرية فى الوجه القبلى بمدينـة طيبة والاخرى ملوكها من الرعاه في مـدينة (صا) ولم تزل المملكة الجنوبية فى نزال وصدام مع ملوك الرعاة ينجلى في كثير من الاحيان عن انتقاص اطرافهم الى أن جاءت الاسرة الثامنة عشرة

﴿ الاسرة الثامنة عشرة ﴾

ملـكت هذه الاسرة ٢٤١ سـنة واظهر ان انكسار الرعاة أمام ملوك الاسرة السابقة نبه الامة المصرية الى الاشتداد في المطالبة فقويت بذلك شوكة المصريين بعد ذلك الضعف

كالعظم تراه أقوى مايكون اذا كسر ثم جبر . فعظمت سطوتها وامتدت حدودها وازدادت ثروتها وتكاثر عمرانها فان الملك (أحمس) أول ملوكها نازل ملوك الرعاة وطردهم الى نهر الفرات ثم تعقب أهل النوبة فاخضعهم وانقاد اليه أهل (الايتيوبيا) لان زوجته كانت بنت ملكهم ثم شرع في عمارة البلاد واصلاح ما أفسدته يد الزمان أيام الحروب السابقة ثم سار الملوك من بعده على سننه . وفى أيام هذه الاسرة صنعت السفن الحربية فى البحر الاحمر لغزو بلاد اليمن وغيرها وقد بلغ بالمصريين أن عبدوا بعض ملوكها ولهذه الاسرة آثار فى الكرنك وغيرها - وفى أيام الملك (أمنوفيس الرابع) صدر أمره بعبادة الشمس وترك غيرها من المعبودات . وهذا الملك لم يترك ولداً يرث عنه الملك فتناوبه خمسة من الرجال بدون حق . فكان من آثار تغيير العبادة المودى الى التلاحي والشقاق ولتولى من ليس من بيت الملك أثر فى ضعف الامة لا يستهان به

﴿ الاسرة التاسعة عشرة ﴾

قامت هذه الاسرة على أثر هـذا الضعف الذى نزل بساحة الامة من أثر النحول من عبادة الى أخرى . وتولى أناس من غير البيت الملوكي . لم يألفو العروش الملوكية . ولا عهدلهم بالتيجان ومن كان هذا شأنه لا بد ان يضطرب. أمره

غير أن هـذا الضعف كان عرضاً من الاعراض الثى تطرأ وتزول فلم يؤثر في تلك القوة التى اكتسبتها الامة بما حصلت عليه من ملكة الشجاعة الحربية التى احرزتهـا فى الوقائع الماضية واتصالها بالامم المغلوبة لهاشرقا وغربا وجنوبا

فنبغ من المصريين (رمسيس) الاول رأس هذه الاسرة ولما لم يكن من بيت ملوكي وعلم ان عاقبته ستكون عاقبة سواد من غاصبي الملك . زوج ابنه (سيتى) بحفيدة الملك (أمنوفيس) الثالث من الاسرة الثامنة عشره ليكون له منها سلالة مقدسة يخضع المصريون لحكمها

ولكون هذه الاسرة فى أول شبابها وهذا الملك بعيدا عن مظاهر الترف والبذخ هب لمنازلة الحثيين من أهل آسيا

وأوغل فى أرضهم الى نهر العاصى

وقد حذا ابنه (سيتى) حذوه في أعلاء شأن مصر ومحاربة أعدائها والايغال فى آسيا وعلى توالى الازمان حصل توادبين الفريقين وقد أدخل المصريون فى معبوداتهم البعل معبود الكنعانيين (١)

وأشهر ملك من ملوك هذه الاسرة بل فى هذه الطبقة رمسيس) الثانى ابن سيتي الاول وهو المعروف بسيزوستريس لما امتاز به من الشجاعة واحرزه من النصر على الاعداء فى موطن كثيرة مع حداثة سنة

وقد كان بمصر طوائف كثيرة من الاسرى وغيرهم كالعبرانيين (بنى اسرائيل) وقد نسى المصرون عهد يوسف لطول الزمن ولم يزل نظرهم للعبرانيين نظر الوطنى الى الغريب لما كان يحول دون امتزاج الفريقين من الفوارق الدينية والجنسية واعتبار كل فريق نفسه مقدساً وأفضل من الآخر

---

(١) يظهر انه في هذا الزمن بني معبد البعل الذي في بعلبك لان عمد الصوان المصرى والرسوم المصرية ماثلة بهذا المعبد الى الآن

ولما كان الظلم كميناً في النفس تظهره الشدة ويخفيه الضعف وكان المصريون فى ذلك العهد بحيث لا تضاهيهم أمة أخري أظهروا أحقادهم على العبرانيين وتحكموا فيهم تحكما ظاهراً وسخروهم فى الاشغال والعمارات وصاروا يسومونهم سوء العذاب دون رحمة أو رأفة

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن ينظر الى هذا الشعب المضطهد نظر رحمة واحسان أرسل موسى الى فرعون بآيات بينات فغلب عليه الشقاء وجحد وكان ما كان مما قصه الله تعالى في الكتاب الكريم من قصة فرعون وموسى وانفلاق البحر الاحمر واجتياز بنى اسرائيل الى العدوة الشرقية واتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى

والظاهر ان القوة التى حصلت عليها الأمة المصرية لم تدم طويلا فقد تولى الملك أناس لم يعلم بالتحقيق انهم من الاسرة المالكة ولم يوقف على كيفية انقراض هذه الاسرة غير أنه لا يبعد أن يكون غرق فرعون ونخبة قومه في

البحر سبباً في تلاشي هـذه الاسرة ونزوة بعض الرؤساء وذوى النفوذ والزلفي لدى ملوكها على كرسي الملك كالملك (امنمس) والملك (سيتنخت) وغيرهمـا وبالجملة فقد اختلت الاحوال في ذلك الزمن اختـلالا عظيما وعم الفساد جميع البلاد عقب انقراض الاسرة التاسعة عشرة

﴿ الاسرة المتممة للعشرين ﴾

ولع ملوك هذه الاسرة باسم(رمسيس) حتى ان المؤرخين يسمونها الرمسيسة وقد قامت هـذه الاسرة على انقاض الاسرة التاسعة عشرةوأولهم(رمسيس)الثالث وهو آخر المشهورين من ملوك مصر وقد عنى بأمور المملكة عناية فائقة ويظهر ان العلوم والمعارف تقدمت في مدة هذه الاسرة تقدماً عظيما غير ان أيامها لم تخل من المشاغبات داخلا وخارجاً وقد تغلب على كرسى الملك من ليس من أصل ملوكي (كرمسيس) الخامس. وفي مدة هذه الاسرة عظمت شوكة الكهنة وقبضوا على كثير من مناصب الدولةحتى ان(حرحور) رئيس الكهنة كان ناظراً للعمارات ونيطت به عمارة معبد

امون وبرميمه وعند فراغه من العمل احتفل الملك رمسيس التاسع وحاشيته باكرامه ومدحه مدحاً عظيما وقد كانت المدح ترفع من الكهنة الى الملوك ولم يعهد العكس قبل ذلك وقد انتحل هذا الكاهن لنفسه لقب ولى عهد توطئة لغرض يبطنه

ولم تزل الامور تتقلب بمصر حتي انقرضت الاسرة المتممة للعشرين بموت رمسيس الثالث عشر - والذي يظهر أن ملوك هذه الاسرة اعتادوا البذح والترف وقد كان لبعض ملوكهم عادة بالذهاب سنوياً الى الجزيرة بين دجلة والفرات لقضاء بعض الفصول المناسبة فيها

﴿ الاسرة الحادية والعشرون ﴾

أول ملوك هذه الاسرة هو (حرحور) رئيس الكهنة وسبب استيلائه على الملك انه اغتنم فرصة تهاون الملك (رمسيس) الثالث عشر وضعفه وصار يأخذ مناصب الدولة واحدة بعد أخري مابين الرئيس الاول الكهنة أمون . وانه ولى العهد . وحامل المروحه على يمين الملك . وقائد الجيوش فى

الوجهين القبلي والبحري والامين على خزائن الارض - ثم استهوى الكهنة وسائر الامراء وانتزع الملك قسراً ونفى من وجد من الاسرة الرمسيسية الى الواحات

وفي مدة أسرة حرحور انقسم الملك الى قسمين قسم بطيبة فى يد الكهنة وقسم في تنيس (مدينة توجد أطلالها ببحيرة المنزلة) وذلك أن حرحور لما أراد حصر الملك فى ذريته قام في وجهه سكان الوجه البحري مع أهل (صان) (توجد أطلالها بمديرية الشرقيه قرب بحيرة المنزلة) وأسسوا مملكة) أخرى وبالجملة فان مدة هذه الاسرة كانت مدة ثوارت وشقاق أعقب الأمة ضعفاً عظيما لانقسامها وتفرق كلمتها الى أن تأذن الله بانتقال الملك الى سلالة أخرى

﴿ الأسرة الثانية والعشرون ﴾

كانت عاصمة ملك هذه الدولة مدينة (بسطة) قرب مدينة الزقازيق وكانت أطلالها شاخصة الى قريب من الزمان ومدة حكم هذه الأسرة مائة وسبعون سنة . وهذه الأسرة من أصل سوري وكان جد هذه الأسرة حضر الى مصر

واستوطنها هو وذريته من بعده وتزوج أحدهم بأميرة من بيت الملك من الأسرة التنيسية

ومن أسباب انحطاط الأمة واستيلاء الاجانب عليها ان المصريين كانت لملوكهم عادة . وهى الاستعانة بالأمم المجاورة لهم في الحروب فكان ذلك داعياً الى دخول الاجانب في البلاد واستيطانها وكان الملوك يكرمونهم ويتقربون اليهم بعبادة معبوداتهم والتكلم بلغاتهم وينشأ من ذلك وجود الكهنة ورؤساء الدين من الأجانب ونبوغ القواد ورؤساء الجيوش فى الحرب واستفحال شوكتهم حتى يؤول ذلك الى التغلب على الملك ومثل هذه الأسرة اذا عدت من الأسر المصرية فذلك لانها نسيت وطنها الاصلى واندغمت في الامة المصرية بالمنشأ واللغة وكانها انقطعت عن الوطن الاصلى وأول ملوك هذه الاسرة (شيشنق)

وقد كان لهذا الملك وقائع في بيت المقدس . وقد دانت له الامة المصرية بالطاعة كما دانت لذريته وفي أول مدة هذه الاسرة حافظت الامة على حالتها وكرامتها غير ان

الامر لم يدم الا قليلا فقـد خرجت ملحقات مصر عليهـا مثل بلاد الشـام والايتيوبيا ونازلوا هؤلاء الملوك فانحطت درجة البـلاد وعجز الملوك عن اقالتهـا من تلك العثرة بل انكمشوا في الوجه البحرى وزادت سلطة الرؤساء وعيثهم فى الرعية وانكبوا على جباية الاموال وظـلم الاهلين وكان أكثر هؤلاء الرؤسـاء من الاجانب ثم انتقـل الملوك الى منف ولتوالى هجمات أعـدائهم من كل جانب خارت قواهم ولم يقدروا على حفظ الملك وانقرض الملوك من هذه الاسرة بوفاة (شيشنق) الرابع

﴿ الاسرة الثالثة والعشرون ﴾

كان مقر هـذه الاسرة بتانيس ـ وسبب قيام هـذه الاسرة ضعف ملوك الاسرة الثـانية والعشرين وخروج الوجه القبلى الى مصر الوسطى من أيديهم ووقوعها فى يد الايتيوبيين وخروج الشام وسائر توابـع مصر وملحقاتها عن حكمها وفساد ملكة الحـكم فى رجال هـذه الاسرة فظهرت الاسرة التنيسية وأول ملوكها (بتوباستيس) وقد جعل مقر

الحكم مدينة بسطه وسعى في لم شعث الامة وانتزع الملك من الايتيوبيين وصار الملك ينتقل في أولاده وكان مقر الملك متنقلا أيضاً مرة بتنيس وأخرى بطيبه وثالثة بمنف وفي مدة ملوكها الاربعة تجزأت الحكومة المصرية الى عشرين ولايه ثم قامت المنازعات بين جماعة من (صالحجر [1] وبين الرؤساء الذين عجزوا عن المقاومة واستغاثوا بالايتيوبيين فلبوا دعوتهم وشنوا الاغارة على مصر ووقع الوجه القبلى في أيديهم ولم يزالوا فى منازعة ونزال حتي ظهر رجل اسمه (تفنخت في الوجه البحرى فقاد الجيوش ونازل الايتيوبيين ولكنهم ظهروا عليه في النهاية وادي الامر الى اتفاقه معهم على الخضوع لهم على أن يولوه امارة الوجه البحري ومن هنا جاءت الاسرة الرابعة والعشرون

﴿ الاسرة الرابعة والعشرون ﴾

تولى الملك (تفنخت) أول هذه الاسرة وكان هذا الملك يتقد غيرة على بلاده ميالا الى جمع كلمتها وجعلها تحت سلطة

---

(١) بلد بالغربية على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد

واحدة - فحارب الامراء الكثيرين في الوجه البحرى واستولى على أماراتهم ماعدا التنيسبين الذين فى شرقي الدلتا وكان بينه وبين الايتيوبيين وقائع مشهورة في نواحى الوجه القبلي فكان ينال منهم وينالون منه ولكنه في نهاية الامر هزم امامهم ودخلت مصر جميعها تحت حكم (بعنخي) ملك الاتيوبيين واستقر تفنخت في صالحجر وصارت مصر ملحقة بايتيوبيا يحكمها ملوك وأمراء متفرقون تحت حكم الايتيوبيا

وقد حذا (باكوريس) حذو والده تفنخت فى انقاذ مصر ولكنه لم ينجح نجاحاً تاماً لانخذاله امام (سباقون) الايتيوبى وقد تشتت الملوك المصريون عن بكرة أبيهم ودانت بطاعة الايتيوبين نهائياً وبذلك انتهت الاسرة الرابعة والعشرون

﴿ الاسرة الخامسة والعشرون ﴾

حكمت هذه الاسرة سنة ١٣٣٤ قبل الهجرة ومدة حكمها ٥٣ سنة

وسبب استيلاء هذه الاسرة السودانية أن الفتن استمرت طويلا في مصر بين الامراء وملوك الاسرتين

الصاوية والصانيه وتزايدت الفتن بسبب التكالب على الحكم فاغتنم (سباقون) الايتيوبى ضعف الامة وانشغال رؤسائها بمنازلة بعضهم وا كتسح البلاد المصرية

ولما استتب له الامر أضمر الاستيلاء على نواحي سوريه وفلسطين ومهد لذلك بعقد معاهدة مع ملك اليهود وغيره من الملوك ايكون لهم عوناً على ملوك آشور الذين كانوا يضايقون تلك البلاد . ولكنه هزم في احدى الوقائع امام(سرجون)الآشورى فكان انكساره سبباً لتجدد الفتن وطمع ذرية الملوك المصريين فى استرجاع الحكم ولكنهم لم يثبتوا امام سبقون ابنه لدوام الشقاق بين الاسر وبعضها الى ان جاء الملك (طهراق) الايتيوبى ووطدملكه على مصر وصار الامراء والملوك تابعين له وقد استقلت مصر عن الاتيوبيا فى هده الاثناء بمساعدة الآشوريين لهم مرتين احداهما زمن (اشوراخي) الدين والثانية في زمن (اشوربانيبال) وقدأدى توالى الحرب بين الايتيوبيين والمصريين الى وهن الايتيوبيين وزوال سلطانهم عنها أيام الملك (نوات ميامون)

بعد ان تحالف الامراء المصريون على مناوأتهم وتقسيم البلاد الى اثنتى عشرة أمارة وكانوا جميعاً يداً واحدة ضد السودانيين

وفي هذه الفترة استعان (بساميتيك) أحد هؤلاء الامراء باليونانيين الذين جاؤا للاغارة على البلاد المصرية فى سفنهم ونزلوا قريباً منه فأكرمهم وحول وجهتهم الى الاستعانه بهم على تأييد سلطانه على البلاد المصريه

ولما ابتدأ في الاستيلاء على الامارات القريبة لم يصعب عليه ذلك لما لحق بالمصريين من الوهن والضعف من توالى الفتن والحروب مدة طويلة فتم له ذلك وكان به ابتداء الاسرة السادسة والعشرين الصاويه

﴿ الاسرة السادسة والعشرون ﴾

كان حكم هذه الاسرة سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة ومدة حكمها ١٣٨ سنة وأول ملوكها الملك (بسامتيك) الاول وقد ظفر بجعل الامة المصريه كلها تحت حكمه وقد سعى فى تقدم الامة وقد صارت مصر في أيامه كانها مصنع قد تنوعت فيه الاعمال وحث الناس على الاشتغال بالعلوم والصناعات فبلغت

مصر فى ذلك شأواً بعيد . وأقام الحصون والقلاع على ثغور مصر ومضايقها وبذل الجهد فى تحسين العلاقات بينه وبين الممالك الاخرى أولا . ولما وثق بقوة جنده غزا ايتيوبيا من جهة الجنوب وملك فلسين وبعض بلاد الكنعانيين من الشرق الشمالى ولم يدم له الفتح ولكنه لما اقتدى بالفراعنة السابقين فجلب اليها الاجانب ورغب الاغراب في استيطانها فكثر عددهم وقويت شوكتهم وتبع ذلك ان بدت البغضاء منهم للمصريين ومن المصريين لهم سيما اليونان الذين ثقل ظلهم على المصريين لما استبدوا به من أمور الدوله ومناصبها وسارعوا الى اقتباس التمدن المصرى وانتحلوا دين المصريين وامتزجوا بالاسر المالكة وغيرها من الاسر العالية وزجوا بأبنائهم فى مدارس المصريين لتلقى الحكمة وقد نبغ منهم سولون وفيثاغورس وأدوكس وافلاطون وغيرهم في أزمنة مختلفة وكلما ازداد قدم اليونان رسوخاً زاد بغض المصريين لهم واعتبارهم دنسين لا يؤاكلون ولا يشاربون ولا تستعمل آنيتهم حتى ظهرت تلك الكراهة بأكبر مظاهرها حين عين

الملك بسامتيك حرسه من الجند اليوناني فهاجر من الجند المصري نحو مائتين وأربعين ألفاً شاكي السلاح الى بلاد الايتيوبيا حنقاً على الملك وعلى صنائعه من اليونان . ولم يجد استرحامه اياهم واستوطنوا بين البحر الابيض والبحر الازرق عند الخرطوم ونشأت منهم أمة عظيمة تعرف بالاسماخ

وفى مدة ابنه (نخاو) حفرت ترعة من عند مدينة بسطة الى بحيرة التمساح ببرزخ السويس بقصد إيصال البحر الاحمر بالبحر الابيض ولكنه عدل عن اتمام هذا العمل خوفا من طغيان مياه البحر الاحمر على الاراضى المصرية ظنا منه ان تلك أعلى من هذه وقد طمت هذه الترعة الى أن افتتحها دارا أيام حكمه لمصر ثم عنى بذلك ملوك البطالسة ثم هجرت وطمت الى أن اتصل البحران بقناة السويس وتم ذلك فى عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديو الأسبق

وقد قام نخاو بتنظيم جند مصرى وأمر اسطولا فينيقيا بالسفر للاهتداء الى أرض كثيرة الذهب سمع بها فطافوا افريقية من البحر الاحمر فالمحيط الهندى فالاطلانطيق فضيق

جبل طارق فالبحر الابيض المتوسط وهو أول طواف حولها

ولما رأى هذا الملك ضعف الدولة الآشورية حرض ملك اليهود (يهويا قيم) على عصيانها واستمرت الفتن فى بلاد الشام بمعونه ملوك مصر الى أن حضر بختنصر الى فسلسطين وخربها وقد رحل كثير من اليهود الى مصر فى تلك الأيام وأقاموا بها ولم تزل الحروب الخارجية والفتن الداخلية وتوارد الاجانب على مصر لاستيطانها فى زيادة الى أن ضعف جانبها وطمعت فيها دولة الفرس وجاء قمبيز الى مصر فى جيش كثيف ووجد من العالمين باحوالها من دله على مقاتلها فافتتحها أيام الملك بساميتيك الثالث فى واقعة عظيمة . يقول المؤرخون ان قمبيز دل على أن يجعل فى مقدمة جيشه عدداً وافراً من القطط والبزاة وغير ذلك من الحيوانات المقدسة عند المصريين فكان ذلك سبباً لانهزامهم خوفا من ان تصيب سهامهم هذه المعبودات المقدسة وثبت فى القتال العساكر اليونانية المستأجرة ولكن ذلك لم يجد نفعاً

دخل هذا الملك البلاد ولم ينتقم الا لرسله الذين أرسلهم

الى المصريين فى منف لدعوتهم الى التسليم فمثلوا بهم وقتل ابن ابسامتيك وكثيراً من الاعيان الاسرى من المصريين . وأمر أولاده وبنته امامه بملابس العبودية فاظهر الجلد ثم أمر امامه أولاد الامراء فلم يتأثر ولكنه أبدى الانزعاج حين مر عليه أحد ندمائه وكان هذا سبباً لرقة قمبيز ولكنه قتله حين علم انه عصب عليه عصبة لقتله وبهذا كان انتهاء الاسرة السادسة والعشرين وهكذا تكون عاقبة الشقاق والتلاحي

﴿ الاسرة السابعة والعشرون الفارسية ﴾

حكمت هذه الاسرة سنة ١١٤٩ قبل الهجرة ومدة حكمها ١٢١ سنة وأولهم قمبيز وقد سار هذا الملك سيرة حسنة فى مبدأ أمره ووجه بجنود كثيرة الى جهات مختلفة ففشل فى جميعها وأكبر فشل أصابه فى غزوة بلاد النوبة وزجه بنفسه وبجنود فى صحراء كروسكو طمعا فى اختصار الطريق الى (نبتا) عاصمة الايتيوبيا وجهله بجغرافية تلك البلاد وتخلى الأدلاء عنه مع فقدان المياه والاقوات في هذه الطريق حتى اضطر الجنود الى أكل بعضهم بالقرعة ورجع فى نفر قليل من الجند

ويظهر ان الفشل وفظاعة مالقيه هو وعسا كره من الجهد قد أثر فى قواه العقلية واورثه ضربا من الجنون فكان لا يهدأ له بال ولا يستقر دون فعل العظائم والنهب والقتل فى المصريين وغيرهم من قومه الاعاجم فاورث ذلك الامة المصرية بغضاًله خصوصاً وقد قتل العجل معبودهم ونبش قبور الموتى ومثل بجثتهم ونهب ذخائرهم واستمر على ذلك الى أن وافاه خبر قيام خارج وانتزاع الملك منه بحجة انه خوه فذهب لتلافى أمره وبينما هو يريد الركوب فى جهات سوريه اذ انداق سفه من قرابه فجرحه جرحاً كان به هلاكه

غير ان خلفه دارا الاول قد عامل المصريين باللين والرفق بعد ان استولى عليها بقصد اصلاح ماأفسده قمبيز – وقد نزعت مصر فى بعض الفترات الى الاستقلال ولكنها لم تقو على التخلص من أيدى تلك الدولة الفتية الفارسية وحصلت بين الفريقين وقائع عديدة كان اليونان من انصار المصريين وكامنافسوهم من الفينيقيين من أنصار الفرس واستمرت الفتن والمنازعات الى وفاة دارا الثانى

﴿ الاسرة الثامنة والعشرون الصاوية ﴾

ابتدأت هذه الاسرة سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة ولم يملك منها سوى ملك واحد هو (اميرته) وهو الذى طرد العجم وسكن الفتن في مصر واصلح شيئاً مما دمره الفرس ولو عاش لافاد مصر كثيرا لكنه مات بعد سبع سنين من حكمه

﴿ الاسرة التاسعة والعشرون المنديسية ﴾

كانت هذه الاسرة بمدينة منديس عند اشمون الرمان قرب المنصورة ومدتها احدى وعشرون سنة وأول ملوكها (نفريتس الاول) وقد اجتهد ملوكها فى اصلاح شأن البلاد وربط المعاهدات بينهم وبين جيرانهم من يونان قبرس والاثينين وملوك جهة القيروان وكانت حكومه الفرس دائبة التربص للايقاع بالمصريين وحصلت بينها وبينهم وقائع لم تنل فيها الفرس مأربها ومن أثار هذه الاسرة صنم أبي الهول الموجود بمتحف باريس وبسبب الضعف الذي تمكن من الامة والاضطربات الكثيرة انتهي حكم هذه الاسرة سنة ١٠٠٠ قبل الهجرة

﴿ الاسرة المنممة للثلاثين السمنوديه ﴾

قامت هـذه الاسرة سنة ٠ ١٠ قبل الهجرة ومكثت ٣٨ سنة فقط وكان مقرها مدينة سمنود وأول ملوكها (نخت حورحب)وقد قامت هذه الدولة فى ابان منازعات وفتن ذهبت بريح الامـة وحروب الفرس التى كانت لاتفتر عن مناصبـة مصر العداء وأخذ الاهبة لادخالها تحت حوزتها وكانت عساكر مصر مؤلفة من جنود مصرية انهكت قواها الفتن والحروب وعساكر يونانية مستأجرة فلم تكن قوة الدفاع فيها بالحـال اللائق بها وفى أيام الملك (نكتانيبوس) آخر هذه الاسرة جردت حكومة العجم جيشـا قويا تمكن من فتح مصر وتأييد سلطة العجم عليهـا أيام الملك أوخوس الفارسى — ولمـا عجز الملك (نكتانيبوس) عن المدافعة جمع خزائن أمواله وذهب الى بلاد النوبة وبذهابه ذهب ملك المصريين على بلادهم الى هذا اليوم

﴿ الاسرة الحادية والثلاثون (الفارسية الثانية) ﴾

منيت مصر سنة ٩٦٢ بالدخول فى حكم الامة الفارسية بعد أن مكثت نحو ست وستين سنة فى حكم الوطنيين

وكان ملوكها في غضون هذه المدة ساعين فى حفظ استقلالها دائبين فى رفع شأنها لولا ما كان يتخلل تلك المدة من مناوشة العجم لهم ونزوع بعضهم الى اغتصاب الملك من القائم به

والفرس أهل قسوة وخشونة وفوق ذلك فانه توجد فوارق كثيرة بينهم وبين المصريين من حيث الدين والعادات واللغة والجنس فكانوا لا يرقبون في مصرى الاولا عهدا ولا يراعون له حرمة فخربوا المعابد والزموا المصريين أن يكونوا مانوية[1] مثلهم وابطلوا عبادة المصريين الا برخصة منهم بعد دفع اتاوة خاصة عن كل معبد

لا بدع بعد ذلك اذا قلنا ان الجهد والمشقة التى نالها المصريون فى عهد الفرس لم ير لها نظير قبلها وان ذلك ادى الى بغض المصري للفارسي المعتدى وصاروا يتلمسون طريق الخلاص الى أن كانت الحرب بين الاسكندر المقدونى وبين دارا الثالث وانهزام دارا امامه في جهات الاناضول فان ذلك فت في عضد الفرس وحدا بالمصريين الى ملاقاة الاسكندر على

---

(١) المانوية هم الذين يقولون باله الخير واله الشر

الرحب والسعة والفاء مقاليد أمورهم اليه دون نزال أو صدام

ومما هو جدير بالاعتبار ان الفرس اقتبسوا من المصريين طريق ادارة الملك وتقسيم البلاد الى أقسام وتعميم القوانين وترتيب الخراج والضرائب وذلك في أيام دارا والملك لله يورثه من يشاء من عباده

الاسكندر المقدوني

هو الاسكندر بن فيلبش من يونان مقدونيا بشبه جزيرة البلقان ـ كان أبوه أحد الامراء في تلك البلاد وقد عنى بتربيته عناية فائقة فعهد بتربيته الى الفيلسوف (ارسطو) فشب متحلياً بالخصال الشريفة من الأمانة والعفة عن الشهوات والشفقة والحلم والكرم والشجاعة واكتساب الفضائل .

توفى أبوه سنة ٣٣٦ ق م بعد أن وطد أساس ملكه فتولى الاسكندر الملك وعمره نحو ٢٠ سنة فنزع بعض أقسام اليونان الى منازعته طمعاً في حداثة سنه فنازلهم وظفر بهم ثم عفا عنهم بعد القدرة فزاد ذلك فى تعلقهم به وانقيادهم له

ولما تم للاسكندر الامر على بلاد اليونان طمحت نفسه الى منازلة الدولة الفارسية والاستيلاء على أملاكها الواسعة الارجاء فأخذ في الاستعداد لذلك ولم يثنه عن عزمه هذا مادسه دارا من الدسائس التي انتجت عصيان أهل طيبة عليه بتحريض (ديموستين) الخطيب الشهير فانه أخضع أهلها فى زمن يسير

كان الاسكندر فى قلة من جنده الذين كانوا ثلاثة آلاف رجل وخمسة آلاف فارس من اليونان والمقدونيين وقد عبر بهم مضيق الدردنيل والتقى بجيوش دارا عند نهر (جرانيق) وكان جيش دارا خليطاً من الامم المغلوبة افارس لم تسقهم الى الحرب رغبة فيها ولم يدفعهم اليها سوى القسوة الفارسية أو حب المناصب الساميه وكان القواد من الفرس المترفين المنغسين فى لذاتهم وشهواتهم المغمترين بما حازته فارس من النصر فى سابق الأيام فدارت الدائرة على دارا وهزم جنده المؤلف من نحو مائة الف رجل وعشرة آلاف فارس وتفرقوا أيدى سبا وفر دارا منهزماً ثم جد الاسكندر فى السير الى

سيليسيا من سواحل آسيا الصغرى وهناك التقي مرة ثانية بدارا وما بقي معه من فل جيشه فأجلت الحرب عن هزيمة دارا تاركا أسرته للأسر واستولى أحد قواد الاسكندر على دمشق واحتوى مافيها من الذخائر ولم يعان الاسكندر مشقه فى الاستيلاء على سواحل سوريا وفينيقيا وقدم مصر سنة ٣٣٢ وخرج اليه عاملها من قبل الفرس المسمى (امازيس) ودخل الاسكندر البلاد باحتفال عظيم وافتتحها افتتاحاً سلمياً وقد عظم معبودات المصريين كالعجل أبيس وذهب الى واحة سيوه لزيارة معبد أمون وبذلك تألف المصريين وحل من قلوبهم محلا رفيعاً واعتقدوا فيه انه ابن اله وبشره الكهنة بأنه سيملك العالم وفى سنة ٣٣١ ق م أمر ببناء الاسكندرية واختطها لتكون مركزاً للتجارة بين أهل أوربا وآسيا وافريقية ـ ثم سار قاصداً مدينة بابل وتوجه الى نينوى والتقي مع جيوش دارا قرب مدينة اربل على نهر دجلة وكانت هذه الواقعة من أشد وقائع الاسكندر هولا وقد تمت بهزيمة دارا وقد انتهى أمره بقتل أحد عماله له أثناء انهزامه فحزن

عليه الاسكندر واحتفل بجنازته وتزوج بابنته وأوغل الاسكندر فى البلاد الى أن دخل بلاد الهند واحتوى مدنها الى نهر السند ولما أنس من جنده فتوراً في متابعة السير والاستمرار على الحرب لما نالهم من الجهد والمشقة رجع بهم الى بابل بعد أن دوخ بهم الممالك وفتح المعاقل وأقام بها الى أن أدركته الوفاة والملك لله يورثه من يشاء من عباده

﴿ مصر فى حكم البطالسة ﴾

مات الاسكندر المقدونى بعد ان ملك هذا الملك الضخم ولم يترك من يرث عنه عرش ملكه العريض وخشى رؤساء القواد افتراق أمرهم وتشتت الممالك وخروجها من أيديهم فأجمعوا أمرهم بينهم بعد النزاع واحتدام القتال فى مواطن عدة على اقتسام مملكة الاسكندر وتكوين ثلاث ممالك كبرى فكانت سوريا وآسيا الصغرى وبلاد فارس من نصيب القائد (سلقوس) ومقدونية من نصيب كسندر ومصر وقبرص وبلاد برقة من نصيب بطليموس الأول

لابد لنا فى هذا المكان من الفات ذهن القارئ الى

ما كان بين المصريين واليونان من الحزازات والتدابر لمزاحمة اليونان لأهل البلاد في مناصب الدولة والرياسات الدينية ومكاسب التجارة والصناعة وسائر موارد الارتزاق فى أيام الملك بساميتيك ومن بعده — غير ان اشتراك اليونان والمصريين فى عداوة الفرس ووقوف المصرى واليونانى بجانب بعضهما في مواطن القتال امام أعدائهم وتضافر الفريقين على صد غاراتهم وما ذاقه المصريون من القسوة والعسف مدة حكم الأعاجم لبلادهم ذهب بتلك الاحقاد وأوجد الألفة بين الفريقين وقد أكد عقدة الائتلاف بينهما ما أظهره الاسكندر من العدل والرحمة للمصريين وتعظيمه لمعبوداتهم والنزول عند مايحبون والتجافي عما يكرهون — لهذا كله ولما لحق بالأمة من الوهن والضعف الذي ليس بعده غاية من حكم الأعاجم وعيثهم في الأرض فساداً — لم يجد المصريون في أنفسهم غضاضة من حكم ملوك اليونان عليهم فلم ينزعوا الى ثورة ولم يتحركوا الى عصيان

﴿ بطليموس الاول ﴾

كان هـذا الملك قائداً شجاعا وقد أبلى فى حروبه مع فيلبش وابنه الاسكندر بلاء حسناً . وقد بذل منتهي وسعه في اعلاء شأن مصر وتوفير سعادتها ونشر العلوم والصناعات فيها وجد فى عمارة مـدينة الاسكندرية وترغيب النـاس فى سكناها وكان غالبهـم من اليونان واستمال اليه قلوب الرعية بالعدل الشامل لـكل سا كن فى البلاد ولم يصادر المصريين فى عقائدهم وعباداتهم ولم يغير ماألفوه من نظام وقوانين وعادات (وكل امرئ يولى الجميل محبب)

بنى هذا الملك في الاسكندرية المعابد الضخمة والقصور الفاخرة حتي كانت زهرة مدن العالم وأقام بناء منارة الاسكندرية التي لم يزل ذكرها الى الآن شهيراً وقد تمت في زمن ابنه بطليموس الثانى وكانت توقد عليها النيران فى كل ليلة لهداية السفن ليلا وهى أول منارة وضعت لهذا الغرض وابتنى داراً واسعـة تسمى (الموزيوم) لتدرس بها العلوم المختلفة فأمها الطلاب والعلماء المشهورون من كل فج ورتب

بها المترجمين والنساخ وأنشأ داراً للكتب لم يكن لها نظير فى العالم ويقال انها كانت تحوى سبعمائة ألف مجلد في العلوم والفنون المختلفة وأنشأ السفن التجارية وكانت مصر فى مدته ومدة ابنه بحيث لاتضاهيها بلدة أخرى في التجارة الداخلية والخارجية وزاد سكان مصر بازدياد ثروتها وعمرانها وكان الناس من الامم الاخري يهاجرون اليها جماعات ووحداناً (وكل مكان ينبت العز طيب) وبالجملة فكانت مصر فى تلك الايام دار العلوم والفنون والصناعات والغنى والسعادة والعز

﴿ بطليموس الثانى ﴾

كان هذا الشبل من ذاك الاسد ـ فقد تولى الملك قبل وفاة ابيه بسنتين بعد ان حكم أبوه ٣٨ سنة فسار بسيرة أبيه ووسع نطاق التجارة الخارجية وأرسل السفن والرواد الى سواحل البحر الاحمر والمحيط الهندى فأسسوا نزلات تجارية وعسكرية ووصل البحر الابيض بالبحر الاحمر بحفر الترعة التي كان ابتدأ بحفرها نيخا والثاني فتفجرت ينابيع الثروة بمصر بسبب ازدياد التجارة ومكث في الملك ٣٨ سنة لم يحارب فيها

سوى مرة واحـدة حين نزع أخوه (ماغاس) والى برقة الى العصيان وكانت نهاية الحرب فوز بطليموس هـذا وما النصر الا من عند الله

﴿ بطليموس الثالث ﴾

كان بطليموس هـذا مقتفياً آثار أبيه وجده فى ترقية شؤون الامة وتوسيع دائرة العلوم والفنون واكرام العلماء وقد أفاض احسانه على (إيرَاتستين) العالم الفلكي الذى هو أول من دون الجغرافيا وكان يقول بدوران الارض حول الشمس واستمر الناس على مذهبه الى أن خالفه بطليموس الجغرافي فأتبعه الناس الى أن زيف قوله كوبرنيق الفلكي الشهير ورجع الى رأى ايراتستين واتبعه الناس فى هذا الرأى الى هذا اليوم

لم يقتصر بطليموس الثالث على متابعة أبيه وجده فى اعلاء شأن العلوم وتوفير الثروة بل نزع الى احتياز الممالك وافتتاح البلدان فجيش الجيوش وقاد الجند الى سوريا وبابل وأرسل أساطيله الى سواحل آسيا الصغرى وأوغل في بلاد العجم ومادي الى مدينة بكتريانه (بلخ) ثم أسرع بالعودة الى

مصر لقمع فتنة قامت بها واستولى على بلاد الايتيوبيا وأعالى النيل الارق وا كتسح بلاد الحبشة الى مضيق باب المندب فكانت هذه الدولة في حكمه تشتمل على مصر وايتيوبيا الى الحبشة وفلسطين وفينيقيا والسواحل الجنوبية والغربية من آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وجزيرة سيكلاده وبلادلوبيه وبرقة وكانت وفاته سنة ٢٢٢ ق م

خلف من بعد البطالسة الثلاثة الاول خلف لاهم لهم الا ملذاتهم والانكباب على شهواتهم وتولية أمور الرعية للندماء وأرباب الزلفي فاختلت الاحوال وذهبت ريح الأمة والدولة واستبد العمال فى الرعية وكانت حكومة الرومان فى مبدأ قوتها فاخذت تتداخل فى أمر حكومة البطالسة ولا تزداد الدولة والأمة بتوالى السنين وكرور الاعوام الا تلاشياً واضمحلالا الى أن جاء بطليموس الثالث عشر واستبدت أخته زوجته المسماة كيلوبطره بمساعدة يوليوس قيصر أشهر قواد الرومان

ولما حصل نزاع بين (مرك انطوان) و(اكتافيوس) الرومانيين انضمت كيلوبطره الى مرك انطوان وجهزت

اسطولا عظيما وشحنته بالمقاتلة فهزمهما اكتافيوس وتعقبهما الى مصر ولما عامت كيلوبطره ان لاملجأ لها من اكتافيوس أهلكت نفسها وبموتها ٣٠ ق م انتهى حكم البطالسة ودخلت مصر فى حكم الرومان بعد أن ذاقت مصر حلاوة السعادة فى أولها ومرارة الحياة فى آخرها وقد كانت اللغة اليونانية لغة الملك وحاشيته والمصريون كانوا أحراراً فى لغتهم قراءة وكتابة وكثيراً ماتكون الكتابة باللغتين اليونانية والمصرية والله يحكم لامعقب لحكمه

مصر فى حكم الرومان

(٣٠ ق م ٦٤٠ ب م)

تم ملك الرومان على مصر بانتصار اكتافيوس على انطوان وكيلوباطره فلم يتخذ فى البلاد المصرية قاعدة للملك بل كانت مصر تابعة لملوك رومة يديرها عامل رومانى وهذا هذا كان سبباً فى ان مصر لم تشاهد فى حكم الرومان عصراً كعصر ملوك البطالسة الاولين الذين استوطنوا البلاد وعاشوا فيها عيشة من لا يريد البراح عنها ولا يعرفون لهم وطناً سواها

— كانت مصر فى عهد البطالسة المتأخرين قد أصاب أهلها من الجهد وسوء الادارة والمظالم التى صبت على رؤوسهم ماافقدهم كثيراً من الفضائل واودى بثروتهم فساءت الحال وسلب الامن واجتاحهم النقص فى الاموال والانفس والثمرات

دخلت مصر فى حكم الرومان فرتبوا فيها ادارة حسنة وولوا عليها عاملا حازما فدبر الامور وساس الرعية برفق فاستردت شيئاً من ذاهب القوة وانبعثت فيها روح النشاط

— وفي هذا الزمن جاء الى مصر (استرابون) الجغرافى وألف كتابه ووصف فيه مصر وصفاً مفيداً

أراد الرومان بعد ذلك الاستفادة بالجنود المصرية فصدر الأمر الى (أنيوس غلوس) بالاغارة على بلاد العرب والاستيلاء عليها فكان ذلك سبباً لتحرك الاتيوبيين للاغارة على مصر لما علموا بخلوها من الحامية ولما وقر في نفوسهم من انهم أحق بملكها لأنهم أهل البلاد وسلالة ملوكها وكانت اغارة الاتيوبيين سبباً في نكوص ذلك العامل على عقبه بعد أن لاقى الجهد الجهيد وعانى المشاق فى البلاد العربية ولم يحل

منها بطائل لوعورة مسالكها وشدة مراس أهلها

ولما جاء خليفته (بترونيوس) تمكن من صد هجمات أهل ايتيوبيا ثم قاتلهم في عقر دارهم وخرب قاعدة ملكهم نبتا ثم ساد بعد ذلك الامن في مصر وحسنت حالها

في نحو ذلك الزمن كثر توارد اليهود على مصر خصوصاً في زمن الامراطور (كايغولا) وكان لهم امتيازات من زمن البطالسة ليست لسواهم فكان الرومان يحقدون عليهم — ولما امتنع اليهود من وضع تمثال (كايغولا) في معابدهم اتخذ ذلك سببا لاضطهادهم واحلال العذاب بهم في المملكة الرومانية ونشأ عن ذلك كثير من الثورات في مدة الامبراطور (وسبسيان) وذلك بعد الميلاد بنحو ثمانين سنة فتفرق اليهود تحت كل كواب ولم تقم لملكهم قائمة بعد ذلك

وفي مدة الامبراطور (تراجان) استولى الرومان على بلاد النبط وكانت هذه الامة تسكن في جنوبي فلسطين والبحر الميت وقد تلاشت هذه الامة بعد ذلك وكانت مدينتهم تعرف باسم بطره ولا تزال بقايا مباني الرومان بها الى الآن

— وفي زمن الامبراطور (انطونيوس)ساد الامن في البلاد المصرية وأخـذ الدين المسيحى ينتشر بين أهلها وبعـد ذلك تقلبت مصر على نيران الفتن والثورات والطـاعون وتغلب الاجانب فقـد رأت (الزباء) ملكة تدمر ضعفـاً في الدولة الرومانية فعزمت على الاستيلاء على مصرولم تظفرالا بمدينة الاسكندرية بعد موت الامبراطور كلوديوس ثم جهز الرومان جيشاً لمحاربتها فهزمت جيوشها فرب حمص سـنة ٢٧١م وفى زمن الامبراطور (كرا كلا)حنق على أهل الاسكندرية فحضر اليها ودعا شبانها خارج البلد وهم لا يعلمون مايراد بهم ثم أعمل فيهم السيف حتى أبادهم

وقد أتى على الاسكندرية وقت خلت فيه من السكان بسبب الطاعون

ولما ولى الملك(طيودوسيس)أمر بالغاء الدين الوثني من مصر وقهر الناس على اعتناق الدين المسيحى فكان ذلك سبباً نعيث المسيحيين واضطهادهم للوثنيين من المصريين وتخريب المعابد والهيا كل في مصر بما لم يسبق له مثيل

لم يكد الدين المسيحى يصير نحلة المصريين حتى بدت التعاليم المختلفة تفشو بين العلماء وظهر الاختلاف في العقيدة باكبر معانيه ووجد كل فريق انصارا وانقسمت الأمة على نفسها انقساما ظهر أثره في المنازعات والاضطهادات

يرى العالم بالتاريخ ان الامبراطرة الرومانيين لم يكونوا على نسق واحد بازاء الدين المسيحى فقد يكون الملك خيرا صالحاً محباً للمسيحية فيأمر بها ويتغالى في ذلك حتى يقهر الناس على انتحالها ثم يعقبه أخر وثني يرى غير رأيه فيقتل العلماء من المسيحيين ويحرق كتبهم ويمنع الندين بهذا الدين ويأمر بالوثنية وهكذا كان الحال ومصر تلاقى من الفريقين كل شر ولم تزل مظالم الدولة الرومانية تتابع على مصر وأهلها في عذاب واصب وقد ساءت حالهم وقل عددهم واستنزفت المغارم ثروتهم واشتد الرومان في معاملتهم لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً وزاد حلقات الضيق استحكاما ما كان بين الفريقين من الاختلاف في العقيدة الدينية — الى أن طفح الكيل وتشوفت نفوسهم الى الخروج

من مخالبهم فلم يشعروا الا وجند المسلمين تحت قيادة عمرو ابن العاص قادمة عليهم من الشام فاستبشروا بالفرج القريب وكانت خاتمة الامر بانهزام الروم واستظهار المسلمين عليهم واستقبال المصريين عصر سعادة جديدة فى ظل العدل الاسلامى

وما نسى الاقباط من حكم الامة الرومانية فلا ينسون مقتلة الشهداء التى أوقعها (دقلديانوس) بالعلماء والفضلاء منهم وهى التي يؤرخون بها التاريخ القبطى الى اليوم

﴿ تمهيد ﴾

لما كان شبه جزيرة العرب هو المكان الذي درجت من عشه الدعوة الاسلامية ومنه قام حماة الاسلام وناشروا لوائه ومؤيد وكلمته ونحن بصدد الكشف عن سيرة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وسيرة خلفائه الراشدين ومن تلاهم من ملوك الاسلام ودوله حسن بنا أن نذكر شيئاً من جغرافية بلاد العرب وما كان عليه أهلها من العادات والاخلاق والديانة قبيل الرسالة لما لذلك من الأثر في بيان حال الداعى صلى الله عليه وسلم وحال من قاموا بنصرته وما عانوه من المشاق في اظهار دينه حتي صارت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا وظهر الفرق المحسوس بين حال الامة قبل الاسلام وبعده اذ تحولوا من شقاء الى سعادة ومن تنافر الى تآلف ومن فساد الى صلاح ومن خفاء الى ظهور حتى افتتحوا من الممالك في عشرات من السنين مالم تصل الى فتحه أقوى الدول شوكة وأعظمهن سلطانا وأشدهن عضدا وساعدا في مئات منها

بلاد العرب

بلاد العرب هي شبه جزيرة عظيم فى الجنوب الغربى من آسيا تحد شمالا ببلاد الشام والجزيرة والعراق وغربا بخط من شراقي العريش الى غربى مدينة العقبة على البحر الأحمر والبحر الاحمر وجنوبا المحيط الهندى وشرقا خليجا عمان وفارس والعراق العربى ـ وموقعها الفلكى بين ٣٠َ ١٢ْ و ٣٥ْ من العرض الشمالي وبين ٣٢ْ و٣٠َ ٥٠ْ من الطول الشرقى ومساحتها تبلغ ثلاثة ملايين من الكيلو مرات المربعة تقريبا ـ وأرض شبه جزيرة العرب هضبة قليلة الارتفاع تخفض تدريجاً حتي ينعدم تدريجها في بادية الشام وسواحل الخليج الفارسى أما غربها وجنوبها ففيه الجبال المرتفعة ـ منها في الغرب جبال شبه جزيرة سينا (٢٦٠٠ متر) وجبال الحجاز والعسير واليمن (٢٠٠٠ متر) وفي الجنوت جبال حضرموت (٢٤٠٠ متر) وهذه الجبال الاخيرة يقل ارتفاعها حتى تساوى السهل على سواحل بحر عمان ـ وفي بلاد عمان الجبل الاخضر (٣٠٠٠ متر) وهو سلسلة جبال قائمة بذاتها في الجنوب الشرقي من بلاد العرب .

ومعظم بلاد العرب صحارى قفراء تشبه فى منظرها وطبيعتها صحراء أفريقيه والامطار فيها قليلة وليس بها أنهر تذكر سوى نهيرات قليلة في وديانها تلبث جافة أكثر العام والعرب تحفر الآبار للسقيا. وهواء بلاد العرب حار الا انه معتدل في الجبال أما السهول فالحر فيها محرق وقد يشتد البرد في هذه البلاد ليلا وبادية العرب محلة جافة وأما الاودية ففيها ماهو جيد التربة صالح للزراعة لاسيما في الجهات الجنوبية كاليمن وحضرموت ـ ومن نبات بلاد العرب الحبوب المستعملة فى الغذاء وغيره كالبر والشعير والفواكه والكروم والقطن والبن وهى تنبت باليمن وحضرموت والحشائش العطرية والطبية والنخيل وهى تنبت في أكثر بلاد العرب — وقد جرت عادة العرب أن يرحلو الى المراعى التى تنبت عقب وقوع المطر لرعى دوابهم الكثيرة من الابل والغنم والخيل والحمير

واذ كانت بلاد العرب قليلة الأنهار التى تكون سبباً في سهولة المواصلة وأرضها وعرة المسالك رملية فى الغالب مع عدم وفرة قوت الانسان والحيوان في كل موضع سخر

الله لاهلها الابل يقتاتون بألبانها ويأكلون من لحومها ويحملون عليهم اثقالهم ويسافرون بها الايام والليالى فى تلك الصحارى المرملة دون أن تكلفهم مايشق عليهم من الزاد أو الماء فانها تصبر عن الأكل والشرب الايام والليالى دون أن يعتريها كلال أو ملال

ومن حيوان بلاد العرب الابل والبقر والغنم والخيل الجيده والحيوانات المفترسة على اختلاف أصنافها والطيور الكبيرة والهوام. وكثيرا مايسطو فيها الجراد فيهلك الزرع

﴿ المعادن في بلاد العرب ﴾

بأرض العرب قليل من الحديد والملح الجبلى — وفى اليمن قليل من الاحجار الكريمة كحجر الجزع والعقيق — وبالخليج الفارسي عدة مواضع يغوصون فيها على اللؤلؤ

وقلة المعادن في بلاد العرب من الاسباب التى قعدت بأهلها عن أن يكونوا أرباب صناعة الا ما كان باليمن أيام قيام الدولة بها واتصال الملك فى أهلها فقد كان لهم قسط لا يبخس من الصناعة ذهب بتناقص العمران فيها وزوال الدولة والملك

عن أهلها ـ وقد كان لوجود بلاد العرب بالحال التي هى عليها أثر فى انفرادهم في جبالهم وبراريهم وكان ذلك سبباً فى عدم اقتباسهم أحوال المدنية التى انغمس فيها جيرانهم لعدم وجود الثروة التي تساعد على ذلك وحاصلات بلادهم لاتفى بتلك المطالب فلم يتيسر لهم استحكام الحضارة والملك

﴿ أقسام بلاد العرب ﴾

اعتاد العرب أن يقسموا بلادهم التي يسمونها جزيرة العرب الى ستة أقسام وهي طبيعية أكثر منها سياسية

(١) الحجاز — قطعة جبلية حارة كثيرة الآبار بهاقليل من النبات والفواكه . قصبتها مكة المكرمة وبها ولد النبي صلى الله عليه وسلم واليها يحج المسلمون لآداء فريضة الحج واقعة فى وادى غير ذى زرع يطل عليه جبل أبي قبيس من جهة وجبل حراء من جهة أخرى . وبه الغار الذي كان يتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة — وجبل ثور وبه الغار الذى لجأ اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صديقه أبى بكر حين طلبهما كفار قريش يريدون بهما شرا

ومن مدن هذه القسم الطائف .على يوم من مكة وبها بساتين ومياه كثيرة وهواؤها معتدل وجبالها شديدة البرد

والمدينة المنورة . وكانت تسمى يثرب . وهي مدينة عظيمة كثيرة النخل . وكانت اليها هجرته صلى الله عليه وسلم وهجرة أصحابه ومن فرض هذا القسم جده ورابغ وينبع على البحر الاحمر

(٢) اليمن . وتسمى اليمن الخضراء لكثرة الثمار والاشجار فيها وقصبتها صنعاء . وهى مدينة طيبة الهواء كثيرة الزرع ومن مدن هذا القسم مدينة ظفار وهى فى صحراء منقطعة بالقرب من صنعاء . ومدينة زبيد

ومن فرض هذا القسم الحديده ومخا على البحر الأحمر

(٣) نجد — وهي أطيب أرض ببلاد العرب . ومن أشهر مدنها مدينة الحائل . وهى على صغرها ذات مبان جميلة وطرق واسعة وحدائق غناء . وهي أيضاً محط للقوافل التجاريه وقوافل الحج . ومدينة الرياض

(٤) حضرموت . وهى بلاد على شاطئ بحر عمان قليله

الزرع والخيرات وهنا بعض الفرض على المحيط الهندي وفى شماليها صحراء الأحقاف

(٥) الاحساء . على الخليج الفارسى وبه مغاصات للؤلؤ في القطف وفى مدنه الكويت

(٦) عمان . في الجنوب الشرقي من بلاد العرب أرضه ماحلة شديدة الحر وفى سواحله مغاصات اللؤلؤ وقصبه هذا القسم مدنيه مسقط

ولعلماء الجغرافيا طرق فى تقسيم بلاد العرب أشهرها انها تنقسم الى أربعة أقسام وهى الحجاز واليمن واليمامه ونجد ويسقطون قسم تهامه الممند من خليج العقبة الى مضيق باب المندب ويلحقون الجزء المسامت منه لليمن باليمن والجزء المسامت للحجاز بالحجاز

﴿العرب﴾

هم الأمة الراحلة الناجعة أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والانعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والاثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون

أثقالهم على ظهورها ينزلون أمكنة منفرّقه ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل ويتقلبون في المواطن فراراً من القيظ تارة ومن البرد تارة أخرى وانتجاعاً لمراعى غنمهم وارتياداً لمصالح ابلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم وسائر منافعهم

وقد اختص كثير منهم بسكنى (جزيرة العرب) ويوصف هذا الجيل من الناس بفصاحة المنطق وذلاقة اللسان والابانة في الخطابة والمحافظة على انسابهم وحفظها من الدخيل

﴿ الطبقة الأولى من العرب ﴾

العرب أقدم الأمم بعد قوم نوح وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة.والعمدة عند الاثبات من المؤرخين في أخبار العرب الأولين ماقصه القرآن الكريم أو صح نقله عن المعصوم صلى الله عليه وسلم . وما وراء ذلك من القصص والاخبار فلا ضمانة عند المؤرخ على الوثوق به لتطاول الزمن وانقطاع الأخبار فلا معول على مايروي عنهم سوى ذلك

وقد كان جيل العرب بعد الطوفان وعصر نوح فى عاد الاولى . وثمود والعمالقة . وطسم . وجديس . وجرهم . ومن ينتهي اليهم ويقال لهم العرب البائدة

أما عاد فكانت مساكنهم بالاحقاف مابين الشحر وعمان وحضرموت وكانوا أولى بأس وقوة فأرسل الله اليهم نبيه هودا يدعوهم الى الهدى فاستكبروا فى الأرض وقالوا من أشد منا قوة فأرسل الله عليهم الريح العقيم وأهلكهم فأصبحوا لاترى الا مساكنهم ـ ويقال لهذه القبيلة عاد ارم بالاضافة الى اسم ارم جد عاد وليست ارم اسما لمدينة كما يقال قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم)

وأما ثمود فكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام وكانوا قد كثروا وعتوا وتجبروا وبرعوا فى الصناعات ونحتو من الجبال بيوتاً وبدلوا نعمة الله كفراً فأرسل الله اليهم نبيه صالحاً يدعوهم الى توحيد الله وافراده بالعبادة فاستحبوا العمى على الهدى ولم يحفظوا عهد الله فى النافة التي أمرهم أن لا يمسوها بسوء ـ وقد تقاسم جماعة منهم بالله ليبيتن صالحاً

وأهله ثم ليقولن لوليـه ماشهدنا مهلك أهله ومكروا مكراً ومكر الله مكراً فأخذتهم الصيحـة فبادوا . وموضع ديارهم معروف الى الآن . مر به النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وقد مرت السكة الحديدية الحجازية بالقرب من ديارهم

ويقول بعض المؤرخـين ان ثقيفاً من بقايا ثمود كان جدهم غائباً حين أخذتهم صاعقة العذاب الهون

وأما الحيان طسم وجديس فكانت مساكنهم باليمامة وكان فى طسم ملك ظلوم لقيت منه قبيلة جديس أشدما يلقاه الذليل الفاقد للظهير والنصير من عات جبار أشرب فى قلبه القسوة . فلما عيل صبر القوم ولم يبق فى قوس تصبرهم منزع جتمع أولو الرأى في جديس وكادوا لطسم المكايد وأعملوا فى رقابهم السيف في وليمة أعدوها لهم فأبادوهم ولجأ من نجا منهم الى التبابعة باليمن واستنصروهم على جديس فأجابوهم الى طلبتهم وأوقعوا بجديس شر ايقاع وبذلك اقفرت الديار من الحين وصاروا سلفاً ومثلا للآخرين وخلت مساكنهم مدة ثم نزلها بنو حنيفة الى أن جاء الاسلام

وأما العمالقة فهم قوم من العرب كانوا ذوي قوة وبأس ومنهم الرعاة الذين يسميهم اليونان (هكسوس) وقد أغاروا على مصر زمن الاسرة الخامسة عشرة وأسسوا دولا قوية وكان منهم عدة فراعنه بمصر وظلو بها الى أن أخرجهم المصريون تحت امرة (احمس) رأس الاسرة الثامنة عشرة وكانت بقاياهم [1] بصحراء بلاد العرب أيام خروج بنى اسرائيل من مصر وقد حصل بينهم وبين بنى اسرائيل حروب ومنهم حور أبي المذكور في التوراة ومن بقاياهم أهل عمان والبحرين .

﴿ العرب الثانية ﴾

كان باليمن قبائل كثيرة من أشهرها سبأو القحطانية وكان ملوك هؤلاء التبابعة

كان لقبائل سباء ببلاد اليمن دولة ذات شوكة قوية مقر ملكها مدينة مأرب . وقد بلغ أهلها درجة عظيمة فى الغنى

(١) بقيت منهم بقية جهة بحيرة المنزلة أيضاً وأهل هذه الجهة كان يقال لهم أهل الحوف

واتساع الحال. وكان لهم حسن قيام على الزراعة وعلم بالهندسة ظهر أثره فيما اخترعوه من الاساليب المفيدة لري أرضهم بما يحجزونه من الماء خلف سد مأرب الى أن كفروا بأنعم الله فسلط عليهم سيل العرم المذكور فى قوله تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) وكان من قبائل سبأ لخم وجذام وغسان وعاملة. وقد أزعجوا من ديارهم بذلك السيل الذى فرقهم وجعلهم سلفاً

ومثلا [1] — ولما نزلت لخم الحيرة مع كثير من القبائل بني اسماعيل وغيرهم من العرب امتزجوا ببعضهم وعرف جميعهم باسم التنوخية [2]. وأسسوا سنة ١٩٢ للميلاد دولة في الحيرة. دعا اليها ما ألفه اللخميون من طبيعة الملك في بلادهم أيام عمرانها وقربهم من دولة الفرس التي يفصلها عنهم سواد العراق. وارتحال كثير من قبائل العرب اليهم وتكاثف جموعهم المؤدى بطبيعته الى وجود وازع ذى شوكة يسوس أمورهم ويجمع كلمتهم — ومع هذا كله فقد كان هؤلاء الملوك يدينون بالطاعة لملوك فارس وقد استمر ملكهم الى النعمان الخامس سنة ٦٠٥ ميلادية — ثم نزع ملوك الفرس الى بسط سلطانهم على مملكة النعمان وتولى ادارتها مباشرة فكانت الحرب بينهم وبين العرب في واقعة (ذى قار) سنة ٦١٦ م أوائل البعثة وقد انتصف فيها العرب من الفرس . واستعقب ذلك ان غلب الطائيون على بعض المملكة حتى جاء الاسلام

(١) تقول في القوم اذا تفرق أمرهم تفرقوا أيادى سبا

(٢) من تنخ بالمكان أقام به

وقد ولى الحارث بن عمرو بن حجر الملك على قبائل معد بعد أبيه ثم فرق الحارث ولده في قبائل العرب ولم يكن ذلك ملكا على الحقيقة . وانما كان من قبيل المشيخة وكان دين بني نصر الوثنية الى أن تنصر النعمان بن الشقيقة فصارت المسيحية ديناً لهم وقد نزل الغسانيون الشام وتولى أحدهم الامارة على من بتلك الجهات من العرب وظل الامر ينتقل فيهم حتي صار ملكا — وكان أمرهم صائراً الى ملوك الرومان يدينون بالطاعة لهم وينتهون الى ما يحبون واستمر ملكهم الى سنة ٦٣٧ م

وأما الاوس والخزرج وهم من قبائل سبأ فقد نزلوا صوب مدينة يثرب وكان بتلك الناحية قبائل من جالية اليهود نزلوها أيام بختنصر حين أغار على بيت المقدس وخرب بلادهم واجلاهم عنها وهو الجلاء الاول ـ وكان اليهود أصنافا . منهم القوام على الزراعة وأصحاب العلم بها . والصواغ . والتجار . وقد استحكم أمرهم فصار الاوس والخزرج في ضيق من العيش وضعف عن حماية أنفسهم من تحكم اليهود الذين قد اذا

قوهم أنواع العسف . ففزعوا الى بنى عمهم من ملوك الحيرة واستعانوا بهم على قتل عدد غير قليل من أشراف اليهود فوهي جانب هؤلاء وحاق بهم الذل (والذل يظهر في الذليل مودة) واستعقب ذلك أن اتخذ بطون من اليهود أحلافا من بطون الاوس والخزرج للاعتزاز بجاههم فحسنت حال الاوس والخزرج حقبة ثم دب بينهما عامل الشقاق فافترقوا بعد أن كانوا يداً واحدة أيام تحكم اليهود فيهم الى أن ألف بين قلوبهم الاسلام

وكانت قبائل القحطانية وملوكهم التبابعة من قبيلة حمير باليمن وقصبة ملكهم صنعاء وكانوا ذوى شوكة قوية وملك ضخم ومدنيــة عظيمة . وأرضهم خصبة طيبة الهواء كثيرة الماء . وكان أهل هذه المملكة يشتغلون بالفلاحة والتجارة فيما تنبته أرضهم من البهار والعطر وكان لهم حظ وافر فى استخراج المعادن وصناعتها ـ ثم تناقص عمران بلادهم بعد تلف سد مارب ومهاجرة كثير من العرب ونزوحهم عن اليمن . ثم فشا ظلم الحكام وعسفهم حتى ال الامر الى اغارة

الحبشة عليها سنة ٥٢٥ ميلادية فأذاقوا أهل اليمن من العذاب ألوانا الى أن أجلاهم الفرس عنها سنة ٥٧٥م حين استعان بهم الملك (سيف بن ذي يزن) واستخلص الملك لنفسه غير ان مدة ملكه لم تطل ولا مدة ملك خلفه . ثم استقر أمر اليمن الى الفرس يرسلون اليها العمال الى أن جاء الاسلام

﴿ العرب المستعربة ﴾

كان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام من أم مصرية. وقد ساء سارة زوج ابراهيم (على ما في التوراة) ان ترى ابن الجارية (هاجر) فى بيتها فاضطرت أباه الى ابعاده وابعاد أمه بحيث لا تراهما فنزل ابراهيم عليه السلام باسماعيل وأمه بواد غير ذى زرع (هو مكة) وكان بقرب هذا المكان جماعة من جرهم هاجروا من اليمن ونزلوا هذه الناحية وأجلوا منها العمالقة . فأوت هاجر أم اسماعيل اليهم هي وولدها فشب اسماعيل بينهم وتعلم لغتهم وأصهر اليهم فأولاد اسماعيل عرب بالمنشأ لا بالجنس. وهم العرب المستعربة

أمر الله ابراهيم بعد ذلك ببناء البيت الحرام (الكعبة)

فبناه بمعونة ولده اسماعيل ودعا الناس الى حجه وقضاء المناسك عنده وفشا دين ابراهيم فى العرب وكان يقيمه فيهم اسماعيل ثم بنوه — وقد ظل الامر بين جرهم وبنى اسماعيل جميعاً والوفاق مستحصد العروة لما بين الفريقين من الرحم والقرابة الى أن بادت جرهم ولم يعلم سبب لابادتهم — والذى يظهر ان ذلك كان في اغارة بختنصر على العرب

نزل بعد ذلك بطون من جرهم الثانية من قحطان على مكة وساكنوا بني اسماعيل الذين كان لهم أمر البيت وفيهم سدانته[1] ولما كثر بنوا اسماعيل وصاروا قبائل كثيرة كتميم وتغلب وأياد وبنى بكر بن وائل وبني فهم وقضاعة وغطفان وغيرهم من القبائل التى تنسب الى عدنان فمن فوقه . كثر بينهم الشقاق والنزاع ومزقتهم الحروب فخرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام . وبقى القليل منهم فى مكة فغلبتهم خزاعة على سدانة الكعبة وأجلتهم عن مكة فتفرقوا . الى أن جاء قصى سنة ٤٤٠ ميلادية واستعان

---

(١) سدانته خدمته

بأخواله من قضاعة على حرب خزاعة فأعانوه وغلب القوم على أمرهم وانتهت اليه سدانة البيت والرياسة على مكة وتوارث ذلك بنوه وهم قريش .

كثر بنوا اسماعيل وتفرقوا في جهات الارض كما قدمنا فنزل عبدة قبائل منهم البحرين وبها جماعة من الازد اليمنية ولخم وغيرهم وتحالف جميعهم على المقام والتناصر فصاروا يداً واحدة وضمهم اسم تنوخ (كامر) ثم انساحوا في ريف العراق ونزلوا مابين الانبار والحيره ولما وجده هؤلاء القوم من سعة الحال واجتماع الكلمة واحتياجهم الى الذب عن حوضهم وحماية أنفسهم من الفرس أصحاب الدولة والصولة . وجد فيهم الملك أولا في مالك بن فهم ومن وليه ثم انتقل الملك الى اللخميين من بنى عدى بن نصر ولم يبرح الملك في عقبه الى ان كان آخرهم النعمان بن المنذر

﴿أخلاق العرب وعاداتهم﴾

يرى الواقف على جغرافية بلاد العرب ان أكثرها صحارى جرداء ورمال محرقة وهضاب ووهاد لا يروق أرباب

التيجان امتلاكها ولا تتجه همم ذوى السلطان والملك الضخم الى افتتاحها وبسط جناح سلطانهم عليها لما في ذلك من المخاطرة بالجيوش وتعريضهم للتهلكة في تلك البلاد الوعرة مع جهلهم بالمسالك على صعوبتها الى مايستلزمه أمر الجيش في تلك البراري من الأزواد وعلف الماشية التي تقله واضطرارهم الى حمل الماء لسقيا الجيش والدواب على حين تيقنهم ان مايحصل فى أيديهم من امتلاك تلك الأرض.بعد الجهد والتعب لايساوي مشقة الوصول اليها . اذ ماحاجة كسرى وقيصر الى امتلاك منابت الشيح والقيصوم وفي يد كل منهما كثير من الأقطار الخصبة التربه الكثيرة الخيرات والبركات تجبي اليهما منها ثمرات كل شيء كما يجبي لهما من ضرائبها ماان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة

ومن هنا نعلم ان حالة بلاد العرب قامت لها مقام الحصون الطبيعية فعصمتها من تناول أيدي الفاتحين وأحرزتها عن أعظم الممالك سلطاناً وأشدها بطشاً وأقواها بأساً

تجد العربي بطبعه قوي البأس أبياً للضيم قليل التشكي

للمصيبات لا يزدهيه الترف. يجزيء بالكسرة من الشعير أو تمرات يدفع بهن حدة الجوع غير حريص على حياته وفياً بالعهد يرعى حرمة الجوار شغوفاً بالشرف وما يكسبه حسن الذكر الى كرم جاوز المقدار. عفوا عند القدرة معجباً بنسبه وحسبه وفضائل أوليه. يروى مآثرهم عن سلفه ويلقنها البنيه لا يرى فخراً وراء فخر عشيرته ولا يدين بالطاعة لغير من عرفت له قبيلته السيادة عليها ـ يعظم أهل العقل والتجربة ويمتثل مشورتهم — وقد قرن الى الافراط في هذه الفضائل مساوى تكدر صفوها فهو يرى أفضل ماله ما أحرزه عنوة وسلبه قهراً. وأفضل أعماله الغزو وقتل الاقران وترك الاطفال يتامي والنساء أيامي وسبي النساء والذراري وتخريب الديار. واذا لم تتزوج البنت عقب بلوغها دفنها أبوها حبة أنفه من العار الذي يلحقه. وربما قتل الواحد منهم ولده خشية الاملاق

وبما تقدم من أخلاقهم وعاداتهم وما عليه طبيعة أرضهم من قلة الخصب وما ألفوه من الحط والترحال وراء مرعي

الماشية ومواقع المطر. لم تقم في جزيرة العرب دولة ولم تستحكم في العرب طبيعة الملك وعاشوا قبائل متفرقة في البادية اذ الملك لا يكون في الامة الا متى أحست بضعفها عن حماية نفسها بأزاء عدو طامع في الاستبداد عليها وقد كفى الله العرب غائلة جيرانهم وقامت طبيعة بلادهم حصوناً طبيعية في وجه أعدائهم فلم يبق الا ما يكون من استطالة بعض القبائل على بعض وكل قبيلة في منعة من بأسها وقوتها واحلافها فلذلك لم يقم فيهم الملك ولم تكن لهم دولة اللهم الا في اليمن والحيرة وجنوب الشام لما دعت اليه طبيعة البلاد ورفاهة العيش ومع ذلك فقد انحلت عروة الملك باليمن وأتى عليهم حقبة من الدهر قبل البعثة وهم بالاعراب البادية أشبه

كان الله سبحانه وتعالى قدر لهذه الأمة هذا الضرب من المعيشة ليكون على قرب من الفطرة وجانب من السذاجة بعيد من عادات الملك المفسدة للاخلاق الذاهبة بكثير من الخصائل حسن اثرها في القيام بحمل الاسلام الذى رضيه لهم ديناً وليظهره على الدين كله بقيامهم بحمايته حتي

تصل دعوته الى الناس كافة . فكان بعد ان ألف بين قلوبهم بالاسلام وجمعهم على الهدى ان جاسو خلال ديار الأمم لا يرهبون تلك التيجان ولا يصدهم عدد ولا عدد فاستباحوا حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم ومالوا نحو الترك بالمشرق والافرنج والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الأقصى ومن اليمن بالجنوب الى الترك بالشمال ينشرون هذا الدين ويقومون بالمدافعة عنه وحمايته ممن يصدون عن سبيله ويريدون به سوءاً والله يختص برحمته من يشاء

﴿ الدين عند العرب ﴾

لم يكن عند العرب دين الهي قائم الى نزول اسماعيل بن ابراهيم في مكة. ثم ان الله تعالى أمر ابراهيم ببناء الكعبة فبناها باعانة ولده اسماعيل وأذن في الناس بالحج ودعا طوائف العرب الى توحيد الله فآمنت طائفة وكفرت طائفة وفشت ملة ابراهيم (الحنيفية) فى العرب وأقامها فيهم بنو اسماعيل الى ان طال عليهم الامد وأصاب الحنيفية ما كان يصيب

الاديان فى تلك الاحقاب من تراخي أمرها وميل بعض الناس عنها ايثاراً للشهوات فقل العمل بها الى أن أتى عمرو بن لحي الخزاعي فأقام الاصنام على الكعبة ودعا الناس الى عبادتها وفشت عبادة الاصنام في العرب معتقدين انها تقربهم الى الله زلفى وتشفع لهم عنده تعالى فعبدوا وداً. وسوعا. ويغوث ويعوق. ونسراً. واللات. والعزى. ومناة. وهبل. واسافا. ونائله. وذا الكفلين وذا الشرى وبهما وسعيرا والغاس وعم أنس والطاغية وغير ذلك. ثم دخلت اليهودية اليمن والنصرانية نجران وقبائل غسان ودان بها بنو تغلب ومال بعض العرب الى الصبائية فعبدوا الشعرى اليمانية والدبران ولم تعم النصرانية بأئل العرب لما يقوم من الصعوبات في وجه دعاتها اذا حاولوا دخول تلك البلاد كما شكا ذلك أحد القسوس في ذلك الزمان

وقد بقي للعرب مع تفرقهم فى الدين وشيوع الوثنية فى أكثرهم شيء من الحنيفية ممزوجا بعاداتهم وما انتحلوه من وثنيتهم. فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة

وتغتسل نساؤهم من الطمث ويديمون المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ويمنعون التزوج بالأمهات والبنات والاخوات ويعيبون المتزوج بزوجة أبيه ويسمونه (الضيزن) ويقطعون يد السارق اليمنى واذا تنازعوا فى شئ ردوه الى الكهان ويزجرون الطير ويعيفون[1] ويستقسمون بالازلام ويدخلون فى الميسر

وكان العرب قاطبة مع تفرقهم فى الاهواء وتخالفهم فى الدين متفقين فى تعظيم الكعبة يهدون الهدى اليها ويأتونها بالحلي والنفائس

وفى القرن الذى قبل الهجرة ظهر فى العرب من رفض الأصنام ونهي عن عبادتها كما أعرض عن سائر الأديان وتمسك بما وصل اليه من الحنيفية كورقه بن نوفل وعثمان بن حرث وعبيد وزيد بن عمرو (وقس وسبحان) ـ وهو أمر

(١) وزجر الطير أن ينفر الطائر عن الشجر صائحا ثم يستدل بكيفية طيرانه من أحسن يمنا أو شمالا أو نحو ذلك على ما يحصل فى يومه وإعيافه تجرد من هذا

يدل على استشراف نفوس العقلاء الى تغيير الحال السوءى التى يدين بها العرب ـ على ان عقيدة التوحيد كانت تهجس فى نفوس بعض القوم بحالة لايقدرون على الافصاح عنها

الحالة العامة للعرب قبل الاسلام

لم يخل عصر من أعصار العرب من خطيب مفوه أو شاعر مفلق أو حكيم حازم أو جواد كريم أو شجاع باسل غير ان من تصفح أخبارهم وجد انهم قد بلغوا الغاية القصوى قبيل الاسلام فى اللسن والفصاحة واطالة الخطب وقرض الشعر واطالة القصائد واصالة الرأي والتنافس فى المكارم واحراز النصر فى الوقائع بقضاحق السيف والرمح تنطق بذلك أشعارهم ومانقل من أخبار حروبهم المتوالية التى مرنتهم على الجلاد وخرجت القواد والرؤساء وأرباب المكائد فى الحرب والشعراء المجيدين الذين كان فى قدرتهم رفع القبيلة أو وضعها ببيت من الشعر تتناقله الركبان وتسير بذكره ـ وانشأوا أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز يقيمون بها أياما معلومة كل سنة للتجارة يأتى من انحاء البلاد ـ وللمفاخرة بالخطب والاشعار

والاحساب في مجالس حافلة خالية من التحكم على النفوس يرقى الواحد منهم المنبر وينشد الشعر في أعماله وشرف قبيلته وما لها من النكاية في عدوها الى كثير من سائر فنون الكلام في ضروب المفاخر وبديع الصفات حتي علقوا القصائد على الكعبة إيذانا بعلوها في طبقات البلاغة وتنويها باقدار قائليها وكان الامر في ذلك راجعاً الى قريش فمن استجادوا مقاله أو حكموا له بالفخار طار صيته في الآفاق ومن أهملوا قوله ذهب كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ـ وقد اتصلت العرب بالامم المجاورة كالفرس والروم بالتجارة ـ فكانت نهضة العرب في هذه الفضائل ونبوغ كثير منهم في ذلك العصر آية تمهيد الله للاسلام سبيل الانتشار في انحاء المعمورة والله يحكم لا معقب لحكمه

(أحوال العرب والرومان والفرس في عهد البعثة)

لم تكن حال الأمم الثلاث في عهد البعثة حالا يتمناها عاقل لامته ـ فقد كانت العرب في شقاق دائم وحرب لا تطفأ جمرتها وقد استحكمت العداوة والبغضاء بين بني الاب مع ما فيهم من ذميم الأخلاق كوأد البنات وقتل الاولاد ـ خشية

الاملاق وقد بلغ من هو سهم فى وثنيتهم أن يصنع الرجل بيده صنماً من الحلوى ثم يأكله اذا جاع - ومن دان منهم بالنصرانية لم يأخذ منها غير شرب الخمر وقد ضرب بباقي تعليمها عرض الحائط - وأما الرومان والفرس فقد أفسد الملك طباع أهل الدولتين وسلخ أهلوهما عن كثير من صفات الخير وتحكم الملوك فى نفوس الرعية وانغمسوا فى النعيم والترف واسرفوا فى الملاذ والشهوات وسخروا أممهم لذاتهم وظنوا أنفسهم خلقاً آخر ورفعوا منازلهم فوق مراتب سائر البشر - فالرعية يسوقهم الملك الى الحرب كما يسوق الجزار غنمه الى الذبح - وقد استدعت تلك الحروب وذلك الاسراف تكليف الأمة ما تقصر عن تناوله أيدى افرادها من الضرائب. يستخرجون ذلك بحد السيف. فهم لا يكفون عن حرب الاعداء الا الى حرب الرعية وكانت الامة الرومانية قد تلاعبت بها أهواء رؤساء الدين الذين أدخلوا في المسيحية ما شاؤا وشاءت لهم أهواؤهم وظهر الانقسام وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً في الطبيعة والطبيعتين (١)

---

(١) أى هل المسيح طبيعة الهية فقط أو له طبيعة الهية وطبيعة

والمشيئة والمشيئتين. وكل شيعة نرى في الاخرى عدو الدودا يجب استئصاله وأزالة أثره. وقوة الملك من وراء احدى الشيع تصب العذاب صباً على رؤوس مخالفيها. وكان الفرس مع مجوسيتهم وعبادتهم للنيران قد ظهر فيهم الزنادقة والقائلون بمذهب الأباحة في كل شيء وملوكهم يقومون بنصرة هذا المذهب تارة ويسعون في تلاشيه تارة أخرى والأمة بين هذه الاحوال المعكوسة تذوق ألوان الذل والهوان ـ فكان من رحمته سبحانه وتعالى ان أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون

ميلاده صلى الله عليه وسلم

في ليلة الاثنين من عام الفيل الموافق يونيه سنة ٥٧١ ولد سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان في دار أبي

* هو هكذا الاصل في المشيئة

طالب بشعب بنى هاشم بمكة بعد وفاة أبيه عبد الله فارسلت أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الى جده عبد المطلب تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً ـ وكان من عادة أهل مكة أن يلتمسوا المراضع لاطفالهم في البادية ليكون أنجب للولد فاسترضع في بني سعد بن بكر. أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية فتيمنت هى وأهل بيتها به واغدق الله الخير عليهم ومكث فيهم أربع سنين ثم ردته الى أمه ـ ولما بلغ سنا من عمره توفيت أمه آمنة وهي عائدة به من المدينة من عند أخوال جده بني عدى بن النجار. فبقي فريداً فاقد الأب والأم. فحضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده الى أن توفي وكان عمره صلى الله عليه وسلم ثمانى سنوات فكفله شقيق أبيه أبو طالب وكان رحيما به مشفقاً عليه. ولما بلغ سنه عليه السلام تسع سنين صحب عمه أبا طالب في سفره الى بصرى من بلاد الشام للتجارة ـ وشهد حرب الفجار التى كانت بين قريش ومعها كنانة وبين قيس وكان سنه صلى الله عليه

وسلم عشرين سنة وسميت حرب الفجار لان الحرب كانت فى الحرم الذى لايحل فيه سفك الدماء ولذا سمى مثيروا الحرب وهم بنو قيس فجارا. وانتهت الحرب بان تداعي الفريقان الى الصلح . وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعو الحلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان من سادات قريش وتعاقدوا على أن لا يروا بمكة مظلوما الا قاموا معه حتي ينتصف من ظالمه وكان معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والى هذا الحلف الاشارة فى الحديث (امد شهد مع عمومتي حلفا فى دار عبدالله بن جدعان ماأحب ان لى به حمر النعم . ولو دعيت به في الاسلام لأجبت)

بلغ صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين من عمره وقد لهج الناس بما جبل عليه من الصدق والامانة والعقل الراجح عرف له ذلك كبيرهم وصغيرهم فطلبت اليه خديجة بنت خويلد ان أن يسافر بما لها الى الشام للتجارة وتعطيه أفضال ما كانت تعطى غيره ـ فخرج ومعه غلامها ميسرة الى الشام وربحا في التجارة ربحاً عظيما سر به قلب خديجة. ثم لما حدث

ميسرة سيدته بما وقف عليه من أخلاقه وأدابه أرسلت اليه تخطبه لنفسها وكانت في سن الأربعين وهي من أوسع قريش مالا وارفعهم نسباً فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل يتجر في مالها ويأكل من ربحه

ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة هدمت قريش الكعبة لوهن بنائها وبنوها وضاقت النفقة الطيبة عن بنائها على قواعد ابراهيم فاخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً واعلوا بناءها حتى بلغوا موضع الحجر الاسود فتنافس في وضعه اشراف قريش حتي كاد يكون بينهم شر وانتهى الخلاف بينهم بتحكيم أول داخل من باب بني شيبة فكان هو صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا الامين رضيناه.فأشار بحمل الحجر في رداء وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية حتى انتهوا الى موضعه فأخذه بيده ووضعه فيه. وبالجملة فان قريشاً لم تشهد بعد أن بلغ رسول الله مبلغ الرجال مشهدا مما يتنافس فيه العرب أو يكون لاحد فيه فخر الا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً معهم أو مقدما فيهم الى أن بلغ الاربعين

بعثته صلى الله عليه وسلم

كان عليه السلام أحسن قومه خلقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأفضلهم مروءة وأكرمهم مخالطة وخيرهم جوارا وأوسعهم حلما وأبعدهم عن الفحش متحليا بالحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء ـ منحة منحه الله اياها لم يكتسبها بتهذيب مهذب ولا تأديب مؤدب سوى ربه الذى أدبه فأحسن تأديبه فقد نشأ بين أترابه من قومه فاقد الابوين لم يأو الى مدرسة ولم يجاس الى معلم يبصره الهدى تحيط به الاوثان وعبادها والعاكفون عليها فى أمة أمية لا عهد لهم بكتاب ـ ولكن حياطة الله كانت تكلؤه وترعاه فلم يأخذ بمذهب قومه فى عقائدهم بل بغضت اليه الوثنية من أول نشأته وصار ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين قومه بالصادق الامين والله أعلم حيث يجعل رسالته

بماذا يصور وجدان رجل نشأ يتيما فقيرا أميا موحدا بين قوم اشربوا حب الاوثان في قلوبهم وزين لهما الشيطان

أعمالهم وألفوا الفسوق والعصيان ؟ وماذا يعمل لعصمة نفسه من خبيث عملهم ؟ لاشك أن صدره يكون ضيقا حرجاويري الوحدة خيرا من مخالطتهم . وهذا هو السر في انه صلى الله عليه وسلم حببت اليه الوحدة قبل البعثة . وكان يخرج كل سنة يتعبد بغار حراء الى أن نزل عليه الروح الامين بالآيات البينات . فقال له اقرأ فقال ماأنا بقارئ . فضمه اليه حتي بلغ منه الجهد . ثم أرسله وقال اقرأ . ثم بعد أن ضمه الثالثة وأرسله . قال (اقرأ بسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)

ماذا يكون حاله فى ذلك الليل الدامس والجو هادئ والعالم امامه في سكون وقد توسط هذا الجبل فريدا لامؤنس ولا معين ؟ — لم يكن من حاله عليه السلام الا أن ولى مدبرا أو لم يعقب . وذهب الى أهله وقد نال منه الفزع والرعب وأحس ببرد جسده وأخذته قشعريره . فدخل على خديجة وهو يقول زملونى زملونى — ولما ذهب عنه الروع قص على خديجة مارأى . فطيبت خاطره وذكرت من طيب خلاله ما عرفه

الناس به. ثم انطلقت به الى ورقة بن نوفل وهو بن عمها[١] وقص عليه رسول الله ماراى فقال هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى. ثم قال ياليتنى فيها شاباجلداً اذ يخرجك قومك . فنظر عليه السلام الى مايعرفه من احترام قومه واجلالهم لموضعه والى ما سمعه من اخراجهم اياه فقال له أو مخرجي هم؟ قال لم يأت أحد قط بمثل ماأتيت به الا عودى

فتر الوحى بعد ذلك ماشاء الله الى أن ذهب عنه الروع وتاقت نفسه الشريفة الى لقاء جبريل وسماع مثل ذلك الكلام الذى سمعه واستعدت نفسه لذلك استعداداً كاملاً ـ ثم تتابع

ولما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم (ياءيها المدثر قم فأنذر) كان يدعو من يثق بر سرا فاستجاب له طائفة من قومه قد أشرق نور الايمان على بصائرهم . فاقبلوا على الدين لغير رغبة في مال لما يعلمون من حاله صلى الله عليه وسلم من العيش الكفاف بما يربحه من مال خديجة . وكثير ممن هدوا الى الاسلام كانوا أكثر منه مالا ـــ ولا لابتغاء عز فقد

(١) وكان قد رفض الاصنام وتنصر وقرأ الكتب

كانوا بالمكان الذى لا يرام من عز قومهم وجاههم . فكان دخولهم في الاسلام تلبية لضمائرهم التى استضاءت بنور الحق ومن يهدي الله فما له من مضل

ولما نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) جهر بالدعوة الى الله واثقاً بالتأييدمن ربه . فصعد على الصفا وجعل ينادى بطون قريش باسمائها فابتدر الناس يتوافدون عليه من كل ناحية وأوب — فقال عليه السلام . أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا ماجربنا عليك كذبا . قال (اني نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب — تباً لك ألهذا جمعتنا ، فانزل الله تعالى (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب) الى آخر السورة

ثم أنزل الله تعالى على رسوله قوله (وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى بريئ مما تعملون) فجمعهم عليه السلام وقال لهم انا الرائد لايكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعاً ما

كذبتكم . ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إله الا هو . انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون . ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا . انها الجنة أبدا أو لنار أبداً . ووعظهم وقال لهم فى أنفسهم قولا بليغا . فتكلم القوم كلاماً ليناً غير أبي لهب ثم انصرف الجمع

انصراف قريش عن دعوته صلى الله عليه وسلم

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى فئة متحمسة فى دينها تعبد الحجر الاصم . وقد رسخ فيهم حب الآباء وتعظيم ما كانوا عليه ـ يعتقدون ان من العار الفاضح أن يحيدوا عن دين آبائهم يمنة أو يسرة . ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون وفيهم الشيب من صناديد قريش وأرباب الرياسة الشامخة والشرف الباذخ فى عشائرهم — وكالموت عند أمثال هؤلاء نزولهم عن عرش الرياسة الى اتباعه صلى الله عليه وسلم . وكلهم مفتون بنفسه شامخ بانفه يرى منتهى الذلة والصغار انقياده لمن أخرته السن . فلم يكن منهم حين جهره صلى الله

عليه وسلم بالدعوة الى الاسلام غير الاعراض عنه وتركه وما يدعو اليه استخفافاً بشأنه وجهلا منهم بسنة الله فى تأييد الحق واقامة دعائمه

ولما كان الحق والباطل لايتسع لهما قلب سليم . ولا يمكن استقرار توحيد الله فى نفس الانسان الا بعد تطهيرها من أوضار الشرك حتى يصادف اعتقاد الحق قلباً خالياً — لهذا شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لهم بالبرهان فساد ماينتحلون من عبادة الاوثان وانها لاتسمع ولاتبصر ولا تغنى عنهم فتيلا . وانهم سيكونون معها اذا ظلوا عاكفين على عبادتها حصباً لجهنم . ويذكرهم بآيات الله وما صنعه فى الامم الغابرة كقوم نوح وعاد وثمود ويتلو عليهم قصصهم وما كانوا يعبدون من دون الله وعصيانهم للرسل وما بين قريش وبينهم من المشابهة فى عبادة الاوثان . وانه نذير لهم بين يدي عذاب شديد ان لم يؤمنوا بالله ويدينوا بطاعته فيما يامرهم به من العدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهاهم عنه من الفحشاء والمنكر والبغي ويحذرهم يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم

فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

سمعوا هذا الكلام فانتفخت أوداجهم من الغيظ وغلت صدورهم من الحقد ولووا رؤوسهم . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب وبسطوا ألسنتهم وأيديهم اليه بالسوء . ونالوه بالأذى فصبر محتسباً حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

قام صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى الله وهو فى منعة من قومه وعمه أبو طالب من ورائه يحوطه ويذود عنه الاذى وأبو طالب من قريش فى مكان رفيع . فذهب اليه من ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية . وخيروه بين أن يكفه أو يخلى بينه وبينهم . فردهم أبو طالب رداً جميلا وظل رسول الله فى دعوتهم الى اتباع الدين وترك الاوثان . فما كان جواب قومه الا أن قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فانزل الله او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . وضرب لهم مثلا بالجاحدين الذين قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون وقول الداعى . أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم . وقولهم انا

بما أرسلتم به كافرون

لم يكن من هم رسول الله صلى الله عليه وسلم شتم آبائهم وتضليلهم فيما كانوا عليه من الوثنية. وانما جر الى هذا احتجاجهم عليه بأنهم مستمسكون بما كان عليه آباؤهم من العبادة تقليداً لهم. فجر ذلك الى تسفية آرائهم فى تقليد الفاسد مما كان عليه آباؤهم. فهاج ذلك عواطفهم وبلغ الغيظ منهم نهايته. وقالوا لأبي طالب اما أن تكفه والا نازلناه وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. فأشار عليه أبو طالب بالابقاء على نفسه. فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسارى على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه وظن. ان عمه خاذل له فبكي وولى فنأداه أبو طالب وقال له اذهب فقل ماأحبت والله لاأسلمك

جهد كفار قريش فى ابطال دعوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقارعه حجته بباطلهم. فنقطعت بهم الاسباب

فقد جاءهم بكتاب عربى مبين فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها في كلامهم وتقاصرت عنها درجة

بلاغتهم مع اشتماله على دقائق البيان وحسن العبارة واطف الاشارة وسلامة التركيب فحارت عقول العرب مع كمال حذقهم في أسرار الكلام . وشدة عداوتهم للاسلام . ولم يجدوا في بلاغة القرآن مطعناً . ولم يوردوا في القدح عليه مقالا . بل اعترفوا بأنه ليس من جنس خطب الخطباء وشعر الشعراء وفيهم من أساطين البلاغة . وفرسان الفصاحة . وأرباب الالسن التي يحلقون بها الشعر ويفجرون الصخر من يفوت الاحصاء عددهم . وهم مع ذلك مشهورون بالعصبية والحمية الجاهلية وتهالكهم على المباراة والمباهاة والدفاع عن الاحساب . وكان رسول الله يتحداهم ويقرعهم بامثال هذه الاقوال (فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) و(ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ـ ولو

كانوا يظنون استعانته بغيره لجهدوا في استمالة ذلك الغير بما كان لديهم من المال الكثير والجاه العريض - وقد سمع الوليد بن المغيرة (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذ كرون) فقال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر . ولامه قريش على قوله لما يتوقعونه من تأثيره في عامتهم - واختلفوا فيما يقولون عنه بين شاعر وكاهن ومجنون وساحر. فقال ما أنتم بقائلين شيئاً من هذا الا وأنا أعرف انه باطل. وان أقرب القول انه ساحر فنزل فيه قوله تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيداً الى قوله فقال ان هذا الا سحر يؤثر)

لحق العجز كفار قريش عن معارضة القرآن فقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه . شأن العاجز عن المغالبة فارتدوا خائبين - فلجأوا الى إيذائه وإيذاء أصحابه باليد فلحق المسلمين منهم جهد شديد

﴿ ايذاء قريش للمسلمين ﴾

ان النفوس المستعدة للخير المتهيئة لقبول السعادة لايؤثر فيها جوارها للباطل ولا يقلب طبيعتها مخالطتها أهل الفساد والغي — لهذا أقبل كثير (من أهل النفوس الزكية) من العرب والموالى على الاسلام واهتدوا بهديه . ولما كان المسلمون بمكان من الضعف والعجز عن المدافعة.طمع الكفار فى صرفهم عن هذا الدين وفتنتهم عن متابعة القائم به بالحاق الاذى بهم وارهاقهم الذل والهوان — فمن كان ذا عشيرة قوية تانف أن يحيق به ذل . أو يلحقه هوان. كان فى مأمن من كيدهم . ومن كان ضعيف الجانب فعل به الكفار الافاعيل واذا قوه من الضيم والحيف مالا يقدر على تحمله الا بمعونة من الله تعالى

فمن الذين أوذوا في الله بلال بن رباح كان مملوكا لامية ابن خلف الجمحى . فكان يجعل الحبل فى عنقه ويدفعه الى الصبيان يلعبون به (وناهيك بقسوة الصبي وتحكمه) وهو لاه عن ذلك العذاب بذكر الله ـ وكان يخرج به وقت الظهيرة

ويضجعه على رمضاء مكة ويضع الصخرة العظيمة على صدره ليكفر بمحمد ويعبد اللات والعزى وهو راض بتجرع هذه الغصص صابر على هذا الحر الذي ينضج الجلود مكتف بما ذاق من لذة التوحيد الى أن اشتراه أبو بكر وأعتقه — وفى خلف نزل قوله تعالى (فانذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى) وفى أبى بكر نزل قوله تعالى (وسيجنبها الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى) ـ وقد اعتق أبو بكر كثيرا من الارقاء وانقذهم من العذاب الذى كان يصب عليهم صبا — مثل حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة. وأبي فكيهة. وأم عنيس أمة الاسود ابن عبد يغوث. وزنيرة. عذبت فى ذات الله حتى عميت فلم يزدها ذلك الا إيمانا كما لم يزد من ختم الله على قلوبهم من كفار قريش الا عتوا واستكبارا فكان أبو جهل يقول — (لو كان ما أتي به محمد خيرا ماسبقونا اليه افتسبقنا زنيرة الى رشد ؟) — وممن عذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه

وأمه كانو يعذبون بالنار . وقد مات ياسر وسمية أم عمار من شدة العذاب ـ ولما اشتد العذاب على عمار قال كلمة الكفر [1] ليخففوا عنه شيئاً من عذابه . وفيه نزل قوله تعالى (من كفر بعد إيمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بايمان) ـ وممن ذاق ألم العذاب عثمان بن مظعون . كان عمه يشد وثاقه . ويدخن عليه ليرجع عن الاسلام ـ وخباب ابن الارت مملوك أم انمار وكان حدادا وكان رسول الله يالفه قبل النبوة ثم أسلم بعدها فكانت سيدته تضع الحديدة المحماة على ظهره ليكفر . وشكى خباب مرة الى رسول الله مايلاقيه المسلمون من الاذي فقعد عليه السلام محمرا وجهه وقال (انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بامشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق مايصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الامر حتي يسير الراكب من صنعاء في حضرموت لايخاف الا الله والذئب على غنمه) وقد أنزل

(١) حين قال ذلك قال بعض المسلمين كفر عمار . فقال رسول الله والله ما كفر عمار وانه لممتلئ إيمانا من فرقه الى قدمه

الله تثبيتا لقلوب المعذبين من المؤمنين (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

طفح الكيل بأيذاء المسلمين وزاد العذاب عليهم حتى لحق باشرافهم فهاجر جماعة قليلة منهم الى الحبشة ولم يطب لهم المقام وهى الهجرة الأولى فرجعوا

تناول الكفار أبا بكر بالأذى وأشير عليه بالهجرة فلقيه ابن الدغنة سيد القارة مهاجرا . فأجاره لما يعرفه فيه من كسب المعدوم . وصلة الرحم . وحمل الكل . وقرى الضيف . والاعانة على نوائب الحق . ورحل معه الى قريش فأرتضوا جواره على أن لا يستعلن بعبادته — ولما ابتنى أبو بكر مسجدا في فناء داره كان يصلى فيه ويقرأ القرآن – فكان ينقذف نساء الكفار وأولادهم لاستماع قراءته . وكان بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك قريشاً وشكوا الى ابن الدغنة أمره فرجا أبا بكر ان يستتر . فرد عليه أبو بكر جواره مكتفيا بجوار الله وهكذ يكون حال المستضعف اذا وثق بربه

اية قوة يقين بهذا الدين ملأت صدورهم فجعلتهم يستهينون كل عذاب ؛ بل آية لذة به غمرت هذا الالم باستغراق شعورهم حتى صارت كل شتمة أو سبة ، نغمة طرب تجلب فرحهم ـ وكل ألم يقع على أجسادهم يجلب مسرتهم ؛ ولكنه هدى الله يهدي به من يشاء ومن يهدي الله فما له من مضل

رأى كفار قريش ان شدة الايذاء لاتزيد المؤمنين الاايمانا وثباتا على يقينهم فعرضوا على بنى عبد مناف دية مضاعفة ليخلوا بينهم وبين رسول الله ليقتلوه . فلم يفعلوا خشية مايلحقهم من العار . فعمد كبار قريش الى أن تعاقدوا على منابذه بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم بمنع حضور الاسواق وقطع الاتصال بين الفريقين من كل وجه حتى يسلموا محمدا للقتل وكتبوا صحيفة بذلك ووضعوها فى جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى شعب أبي طالب غير أبي لهب. ومنعت قريش التجار عن مبايعتهم حتى ضاق ذرع من بالشعب وقلت عندهم الاقوات وصاروا يأكلون ورق الشجر . ثم أن خمسة من رؤساء قريش وأهل لرأى فيهم لم

يستحسنوا دوام المقاطعة بين بنى هاشم وبنى المطلب وبين سائر قريش خصوصاً . ان هذه المقاطعة لم تجد نفعاء فاتفقوا على شق هذه الصحيفة الظالمة فقام اليها أحدهم وهو المطعم ابن عدى وشقها .فوجدالارضه قد أخلعت جميع حروفها غير اسم الله تعالى . فخرج من كانو بالشعب بعد أن أقاموا فيه ثلاث سنين لاتفضل حالتهم فيه حالة المسجونين

كانت دعوة رسول الله عليه السلام تنتشر وخبره يسمع في البلاد القاصية ويحمله الذين يترددون على مكة فى موسم ولما سمع نصاري نجران. ارسلوا وفدا ينظر لهم فى أمره.فتلى عليهم القرآن وبين لهم محاسن الدين الذي يدعو اليه فآمنوا بالله ورسوله — ولامهم كفار قريش فقالو سلام عليكم لانجاهلكم. لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فنزل قوله تعالي (الذين آتيناهم الكتاب هم به يؤمنون الي قوله سلام عليكم لانبتغى الجاهلية)

لم يطل الزمن علي خروجه عليه السلام من الشعب حتي توفيت خديجة زوجه عليه السلام . وقد كانت اول الناس

اسلاما وعاشت معه صلي الله عليه وسلم علي اتم ما يكون من الصفاء بين زوجين ولقى من معونتها له علي امره وتخفيف الشدائد عنه ما اثر في نفسه اثراً لايمحى كان يذكرها به بقية حياته وقد أتى منها باولاده الا ابراهيم واولادها زينب ورقيه وام كلثوم وفاطمة. وبعد وفاة خديجه بنحو شهر توفي ابو طالب وكان ردأ لرسول الله وحصنا يمنعه من وصول كيد الاعداء اليه ويكف يد الظالمين عنه بماله من الجاه فى قريش وقد جهد رسول الله ان ينطق ابو طالب بالشاهدتين فادركته حمية الجاهلية ولم ينطق بهما خشية ان يقال صار ابو طالب تابعا لابن اخيه وهو اصغر عنه سناً . هذا مع يقينه ان ماجاء به هو الحق وقد نزل فيه (انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين) وكان يقول عند الموت (علي ملة الاشياخ)

اشتد الامر بعد وفاة خديجة وابى طالب علي رسول الله واتى من كفار قريش اشد مايلقاه من فقد الحول والقوة من عدو متسلط ـ فكانوا ينثرون التراب على رأسه وهو

سائر ويضعون اوساخ الشاه اوغيرها عليه فى صلاته . وتجاذبه قوم منهم مرة يقولون انت الذى تريد ان تجعل الآلهه ألها واحدا ؟ وابو بكر يقول لهم اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله ؟ ـ ولو كان للمسلمين بهم قوة لعرفوهم كيف يكون احترامه صلى الله عليه وسلم . ولكن المسلمين في ذاك الوقت كانوا كالمصحف في بيت الزنديق ينظر الكفار اليهم بعين الاحتقار والامتهان وقد صبت علي رؤوسهم انواع العذاب الا من كان له عشيرة تمنعه

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم استهانه القوم به وضعفه عن حماية نفسه واتباعه ورأى فيما قصه الله عليه من أبناء اخوانه من الرسل انهم كانوا يلاقون الشدائد من قومهم وأقرب الاقربين اليهم . فرجا أن يجد الفرج لما هو فيه وأصحابه من الشدة بالهجرة الى الطائف يدعو ثقيفا الى الاسلام فاذا اسلموا كانوا عونا للمسلمين على الخروج من هذا الذل اللاحق بهم لما يعلمه فى ثقيف من القوة والبأس ـ فهاجر الى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة وعمد الى سادة القوم وهم

عبد ياليل وحبيب ومسعود أولاد عمرو بن عمير الثقفي وعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته . فأساء وارده فاستكتمهم الحديث الذي قال خشية اشتداد قريش عليه فلم يكتموه وأغروا به السفهاء والعبيد يشتمونه ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه وزيد بن حارثة يدرأ عنه

أي قلب قد من صخر لايذوب حزنا لرجل كامل الاخلاق والاداب يدعو قومه وعشيرته الاقربين الى السعادة في الدنيا والاخري وهم مع ذلك يرون فيه العدو الالد

وظلم ذوى القربي أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

رجل أحرجه قومه فاخرجوه الى الاحياء بغيرهم فلم يجد قبولا وأكدي فيما طلب . بل لقي الاهانة ممن يرجو منه النصر والعزة وقطع حبال امله من الخلق فتوجه الى الخالق يدعوه بقوله « اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتى وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني . ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » فانظر الى هذا

الخلق الكريم والنفس المجبولة على الخير. فهي تستهين بكل صعب وتتلقى المصائب بالقبول ما دام رضا الله من ورائها ـ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء .

علمت قريش بذهابه الى الطائف للاستنصار بثقيف فازدادت ضغائنهم وطفحت قلوبهم بالحقد عليه . وعلم رسول الله انه مفرد فيهم لا ظهير له ولا نصير فارسل الى سيد من سادات قريش هو المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يطلب دخول مكة في جواره فاجاره . وعرفت قريش ذلك فخففوا من اذاهم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على ايمان قومه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقد نالوه من الاذى بما ينفد معه الصبر فلم يزده ذلك الا ثباتا على دعوته وكلما توجه الى الله بالشكوى من أذاهم وبث حزنه من كفرهم وعنادهم قال (اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون) نفس شريفة طبعت على البر وروح قدسية مازجتها الرأفة وحب خير لعباد الله . فمن

تحلى بهذه الخلال لايشك شاك في انه من المصطفين الاخيار

﴿ عرض رسول الله نفسه على القبائل ﴾

يئس رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه ونصرتهم له حتي يبلغ ماأنزل اليه من ربه. فأخذ يعرض نفسه على القبائل ليحموه حتي يؤدى رسالة ربه ويدعوهم الى الاسلام في المواسم واذ كانت دعوته حديثة ولا عهد للناس بشيء من هذا القبيل ولم تتهيأ نفوسهم تهيئاً فعليا لقبول هذه الدعوة لما هم فيه من الشغل الشاغل بما ألفوه من عبادة الاوثان واسعار نار الحرب وما اعتادوه من المنكر وقد جاءهم بدين قد جهلوه يأمرهم بمفارقة ماهم عليه (والناس أعداء ماجهلوا) فكان بعض القبائل يرد ردّا جميلا. وبعضها يرد بجفاء وغلظه كبني حنيفة قوم مسيلمه الكذاب. واشترط بعض رؤساء القبائل للايمان به ان تكون لهم الرياسة من بعده فكان قصدهم من الايمان به أن يسودوا القبائل ويكون لهم الفوقان على من عداهم. ولم يكن الهدى قائدهم الى الايمان ولذا لم يجبهم رسول الله الى طلبهم وقال لهم (الامر لله يضعه حيث يشاء)

. كان أهل المدينة من الأوس والخزرج قد استحكمت بينهم العداوة والبغضاء وقامت بينهم الحروب الحاصدة للارواح كأن لم تكن بينهم قرابة ولم يجمعهم نسب يستعين كل فريق على الآخر بجماعة من اليهود الذين كانوا يستفتحون على أعدائهم من الأوس والخزرج بنبي يبعث من العرب قد أظل زمانه . ويتوعدونهم بنصرته والانتقام من العرب بواسطته ونيل العز بالالتجاء اليه

رغب الأوس في محالفة قريش على الخزرج واحلافهم من بني النضير وبني قينقاع فأرسلوا اياس بن معاوية وانس بن رافع في جماعة يلتمسون حلف قريش فلقيهم رسول الله وعرض عليهم الاسلام وقرأ عليهم القرآن ـ فقال اياس هذا والله خير مما جئنا له فخالفه أنس ولم يؤمن من الوفد أحد غير اياس

﴿ بيعة اهل المدينة وابتداء اسلامهم ﴾

ولما جاء موسم السنة الثالثة قبل الهجرة تعرض رسول الله لنفر من أهل يثرب يبلغون الستة فقال بعضهم لبعض

انه للنبي الذى كانت تعدكم به يهود . فلا يسبقنكم اليه. وآمنوا به راجين زوال مابين الاوس والخزرج من الاحقاد على يده واعزاز الدين بهم . وفارقوه على وعد من اللقاء في العام المقبل . ولما أظل الموسم جاء رسول الله اثنا عشر منهم أوسيان . فسلموا وبايعوا رسول الله على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و بنيهم وهي بيعة العقبة الاولى . وأرسل رسول الله معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم يعلمانهم الدين ويبينان لهم أحكامه

ولهج الناس بذكر محمد ودينه بالمدينة وسلم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ سيد الاوس . وحين أسلم سعد ذهب الى عشيرته بنى عبد الاشهل وقال لهم . ما تعدوننى فيكم . قالوا سيدنا وابن سيدنا . فقال كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا . فاجابه بنو عبد الاشهل . وصار الاسلام حديث أهل يثرب وقد دخل فيه افواج من الاوس والخزرج . ولما كان الموسم الذي يلي العقبة الاولى خرج كثيرون من الاوس والخزرج مسلمون ومشركون للحج . وقابل وفدهم رسول الله وواعدوه المقابلة ليلا عند العقبة خفية

أن يتسرب الخبر الى قريش فيفسدوا ما عمله رسول الله . فاجتمع منهم ثلاثة وسبعون وامرأتان والتقوا برسول الله ومعه عمه العباس وهو على دين قومه . وبعد أن توثق العباس لرسول الله منهم قال رسول الله — اشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا . ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم - فبايعه الرجال على ماطلب وهي العقبة الثانية ولم يعلم بها المشركون . وأحست قريش الخبر فجاءوا يعتبون على الاوس والخزرج . فسكت المسلمون وأنكر المشركون وحلفوا أنهم لم يبايعوا أحدا ولما رجع المسلمون الى المدينة ظهر عليهم الاسلام أكثر من المرة الاولى

﴿ الهجرة واسبابها ﴾

أما رسول الله وأصحابه فقد اشتد عليهم أذى المشركين من كفار مكة لانهم علموا ببيعة أهل يثرب وأخذت الهواجس من نفوسهم مأخذها حتى طفح الغيظ على جوانب قلوبهم وبالغوا في الجفاء والغلظة . فأذن رسول الله لاصحابه من المؤمنين في الهجرة فاخذوا يتسللون من مكة لا يشعر بارتحالهم

أحـد ونزلوا المدينة على اخوانهم من المؤمنين فرحبوا بهم ونصروهم ولم يحتجزوا شيئاً من أموالهم دونهم وآووهم (الى حجرات ادفأت وأظلت) وأقام رسـول الله وأبو بكر والمستضعفون من المؤمنـين بمكة حتي يقضى الله أمراً كان مفعولا

عـلم كفار قريش بهجرة من هاجر من المسلمين لى المدينة وايقنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم صار له انصار في غيرهم. فأثار ذلك البقية الباقية من الحقد الـكامن في صدورهم حاسبين ذلك أمراً لايحسن السكوت عليه . وايقنوا بخروج الأمر من أيديهم اذا صار رسول الله في غيرهم من العرب وان ذلك يجر عليهم من الويل مالا قبل لهم به . فاجمعو أمرهم على الانتقام منه واجتمعوا فى دار الندوة ليخلصوا في أمره الى رأي لاتذم قريش عاقبته ـ فقال قائل منهم نخرجـه من أرضنا . فقالوا اذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه . وقال آخر نوثقه ونحبسه حتي يدركه ما ادرك الشعراء قبله من الموت . فخافوا ان يجر عليهم

هذا الرأي ماهم في غنى عنه من حرب انصاره صلى الله عليه وسلم . ثم اجتمع رأيهم على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا يرصدون خروجه من داره فاذا خرج ضربه شبانهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ويضعف بنو عبد مناف عن حرب قريش ويرضون بالدية ـ فاعلم الله رسوله بما اجتمع عليه رأى قومه واذن له في الهجرة الى المدينة ـ والى هذه الحادثة الاشارة بقوله تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

اعلم رسول الله عليه السلام ابا بكر بالهجرة فعرض عليه احدى راحلتيه فلم يرض الا بالثمن . وسأله الصحبة فرضى واستأجرا هاديا من كفار قريش ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال

فارق رسول الله ابا بكر على موعد من اللقاء خارج مكة ليلا . ولما جن عليه الليل امر عليا بالمبيت على فراشه حتى لا يشك احد في وجوده . واجتمع فتيان قريش ببابه لامضاء

ما عزموا عليه من الاثم الغليظ بقتله صلى الله عليه وسلم فغشيهم النعاس وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون) وسار رسول الله حتى لقي ابا بكر وذهبا الى غار ثور فاختفيا فيه

اما فتيان قريش فقد طاشت احلامهم حين علموا انهم باتوا يحرسون عليا وتفرق كفار قريش في كل سبيل يطلبون رسول الله . وانتهت طائفة منهم ومعهم القافه[1] الى غار ثور وخاف ابو بكر ان يبصروا به وبرسول الله فحزن وبكي . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تحزن ان الله معنا) وصرف الله كفار قريش عن البحث في الغار وارتدوا على ادبارهم خاسرين

اقام رسول الله وابو بكر فى الغار ثلاث ليال حتي انقطع الطلب ـ وكان عبد الله بن ابي بكر يأتيهما اذا اختلط الظلام فيبيت عندهما ويدلج بسحر ويظل بمكة يعي من خبر

(١) القائف هو الذى يقص الاثر

قريش ما يبلغه اليهما ـ وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها فاذا ذهب من عندهما عبدالله غدا بها في أثره كيلا يظهر أثر قدميه . ثم خرجا من الغار بعد ثلاث ليال حين انقطع الطلب وجاءهما الدليل بالراحلتين وسارا متبعين طريق الساحل وكانت قريش قد جعلت لمن يردهما (دية) وأخبر بخبرهم سراقة بن جشم المدلجي فطمع في الدية ولحق بهما يريد ردهما على قريش . ولما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عثرت فرس سراقة فخر عنها ثم ركبها ثانيا وسار حتي صار يسمع قراءة المصطفى من قرب فساخت قوائم فرسه في الارض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم جرها فنهضت يديها فخرج لهما غبار ساطع ووقع في نفس سراقة ان سيظهر أمر رسول الله وداخله رعب عظيم فنادى بالامان وأخبر رسول الله بما جعلت قريش فيه من الدية وبما يريد بهم الناس وطلب من رسول الله كتاب امن يكون له عصمة متى اظهره الله على أعدائه . فامر عامر بن فهيرة فكتب له ذلك

أليس من العجيب ان رجلا خرج من داره مشردا

أعزل من السلاح يطلب دمه بكل سبيل . يأتيه فارس بسلاحه وعدته موقن بأنه سيحرز الغنى برده الى طالبيه حتى اذا كان من طلبته قاب قوسين أو أدنى انقلب العادى ضارعا مستأمنا والمروع مانحا للأمان ؛ ولكن عناية الله تغني ما لا تغني السوابغ وترد ما لا ترد الكتائب

كان أهل المدينة يخرجون الى موضع يسمي الحره ينتظرون رسول الله حتي يردهم حر الظهيرة وذلك حين بلغهم خروجه من مكة — واذ آووا الى بيوتهم يوما سمعوا صائحا من اليهود يقول (يامعشر العرب هذا حظكم الذى تنتظرون) فثاروا الى السلاح وتلقوا رسول الله بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بنى عمرو بن عوف بقباء وذلك يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول وتلك السنة أول التاريخ الهجرى وكان نزوله صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم ـ وكان يجلس للناس ويحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة لانه كان عزبا . وأقام رسول الله بقباء بضع عشرة ليله أسس فيها مسجد قباء وهو المسجد الذى

أسس على التقوى من أول يوم وكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقى بها حر الشمس . وهو خال من الزينة والزخرفة التي يتغالى فيها الناس في هذه الايام وينفقون عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والناس في حاجة الى صرفها في النافع لمجموع الأمة وما يعود عليها بالفلاح والنجاح

تحول رسول الله الى المدينة بعد ذلك والانصار يحيطون به متقلدين سيوفهم وقد خرج النساء والصبيان والولائد يغنين بأناشيد الفرح والسرور والناس يتنازعون زمام ناقته صلى الله عليه وسلم كل يريد أن يكون نزيله . وصلى بالناس صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف . وهي أول جمعة صليت في الاسلام . ولم تزل ناقته سائرة به حتي بركت بمحلة من محلات بني عدى بن النجار أمام دار أبي أيوب الانصاري . فقال عليه السلام ههنا المنزل ان شاء الله (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) واحتمل أبو أيوب رحال الناقة ونزل عليه السلام في الدور الاسفل من دار أبي أيوب ليكون الوصول اليه أسهل على الزائرين . ولم يزل به أبو أيوب حتى

كان في العلو خوفا من أن يصيبه تراب من وطء الاقدام أو ماء مما يراق

﴿ اكرام أهل المدينة لرسول الله وبقية من هاجر اليهم ﴾

وكان الانصار يتنافسون في اضافته صلى الله عليه وسلم وارسال الجفان اليه بالاكل في دار أبي أيوب وحكموا القرعة في نزول المهاجرين على من نزلوا عليهم من الانصار . فلم ينزل مهاجرى على انصارى الا بقرعة . وقد آخي رسول الله بين المهاجرين والانصار فكان كل انصارى ونزيله اخوين . وقد أظهر الانصار من محبة اخوانهم من المهاجرين مالا قدرة للقلم على استقصائه وحسبهم قوله تعالى (الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدرهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) نعم كان الانصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم حتى أن سعد ابن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن ينزل له عن احدي زوجتيه — فآية اخوة نسبيه تبلغ الى هذا الحد :

ونى لها ان تبلغه وهذه اخوة اوجدها الاسلام وغذاها اليقين باحراز الاجر عليها . وكفلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقفت بمكارم الاخلاق المقتبسه من التنزيل ؟

بدل النبي والمهاجرون بهذه الهجره من خوفهم آمنا وصاروا يؤدون العبادة آمنين لايخافون غير الله . وقد بني رسول الله مسجده بالمدينة وعمل فيه بنفسه مع العاملين ليكون قدوة لكل سيد ومسود في اطراح الكبرياء ومجانبة الترفع بالباطل وما اعتاده الرؤساء من التنزه عن مباشرة مثل هذه الاعمال زعما منهم انها لاتليق بذوى الاقدار الرفيعة وان كانت خيرا ــ وقد جعل رسول الله قبله المسجد الى المسجد الاقصى الى ان حولت الى المسجد الحرام ــ ورأى عبد الله بن زيد الانصارى في نومه من علمه كلمات الاذان المعروف واقره رسول الله على ذلك فكانو ينادون بها للصلاة

اليهود والمنافقون بالمدينه

ظن المسلمون انهم صارو بمنجاة من شغب المشاغبين وعناد المعاندين حتي رأو اليهود (وهم الذين كانوا قبل الهجرة

يتوعدون الاوس والخزرج بموالاة النبي العربي الذي سيبعث من مكة والانتقام به منهم) قد تقلبت قلوبهم وصرفهم رؤساؤهم عن الهدي وزين لهم الشيطان اعمالهم وصدهم عن السبيل فقاموا لمناوأته صلى الله عليه وسلم ومنابذته العدوان وهم (يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)

كان اليهود قد اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله يحلون لهم ما حرمه الله ويحرمون عليهم ما احله اقتناصا للمال واستبقاء للرآسة . وقد جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (النبي الامي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) مما اخترعه الرؤساء والاحبار الذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله وماهو من عند الله ـ فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون ـ فلما جاءهم رسول من عندالله مصدقا لما معهم نبذ

فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون وحاربوا رسول الله بغير سلطان أتاهم وصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا . وسمع غير مسمع . وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين . واستنفدوا الوسع في الحيل لاضلال الناس بعد الهداية وقالوا لبعضهم ـ آمنوا بالذى انزل الذين امنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ان يؤتي احد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ـ وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد باطلهم بالبرهان ويقرع مشاغبتهم بالحجج ويورد لهم آيات الله فيهم وفي آبائهم من قبلهم فلا يزيدهم ذلك لا عتواً وعنادا . وظاهرهم علي ذلك في الخفاء طائفة من الاوس والخزرج قد اصق النفاق بقلوبهم واشتروا الضلالة بالهدى سنة الله في الذين خلوا من قبل

جرى اليهود في عنادهم شوطا بعيدا وقد نزل فيهم أكثر سورتي البقرة وآل عمران وفيهما بيان ماصنعه أباؤهم مع أنبيائهم وما كان من اسلافهم من مقابلة نعم لله تعالى

بالكفران الى غير ذلك مما كان تقريعاً لهم وتثبيتا لفؤاده صلى الله عليه وسلم - واسلم من رؤسائهم عبدالله بن سلام . وقد انتهى أمر رسول الله مع اليهود علي اقرارهم علي دينهم وان لايحاربهم ولا يؤذيهم وان لايعينوا عليه أحداً وان دهمه بالمدينة عدو قاموا بنصرته

الجهاد

جرت سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ان الحق لاترتفع له قدم الا بعد ان يطأ باخمصها على هامة الباطل اذ الحق والباطل خصمان لايمكن أن يخلى أحدهما للآخر مكانه الا بعد مصارعة وجلاد . والغيث لايعم الارض الا بعد أن يجترف في سبيله مايعترضه من عقبات وصخور

ارجع بنظرك الى ماوصل الى الناس من أخبار الامم قبل الاسلام فانك لاتجد دينا من الاديان قبله الناس بمجرد وصوله اليهم - ولكنك تجدهم يدفعون في صدره ويجتمعون لازهاق روحه واطفاء مصباحه ويأبى الله الا أن يتم نوره بايقاع العذاب عليهم وحلول الهلاك والبوا ربهم بأن تسلط عليهم

الآفات السماوية أو الارضية أو يبتليهم بامكان أحد الشعوب من نواصيهم. وكثيرا ماتولى الانبياء عقاب الظالمين بالحروب الحاصدة للارواح الذاهبة بآثار الأمم - فهذا الطوفان اجتاح قوم نوح والريح العقيم اهلكت عادا . والصيحة أخذت ثمودا . وقوم لوط أمطروا حجارة من سجيل وقلبت عليهم محلتهم . واليم قد أخذ فرعون وجنوده . وقد تولى موسى ويوشع وداوود وغيرهم من انبياء بنى اسرائيل قيادة الجنود أو تزوجيتها فى محاربة أهل الكفر والعصيان وكل هذه الانواع من جنود الله تعالى ينتقم بها من الظالمين وما يعلم جنود ربك الا هو

يرى العارفون بالتربية ان سياسة النفس بترقيتها فى الخير وبيان فوائده من أجل العوامل التي تؤثر فيها حب ملازمته وبمثال هـذه الطريقة أمر الله نبيه محمدا صلي الله عليه وسلم بقوله (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن) (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر)

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون) — غير أن الناس أحد رجلين . رجل تجردت نفسه عن نزغات الشيطان فهو يؤثر الحق على هواه فمن الميسور اقناعه ورده الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ومنهم المكابر الذى باض الخبث وافرخ في دماغه فلا يقوم معوجه غير القوة وتأثير العقاب فيه وسوقه الى السعادة رغم انفه ـ فعقابه رحمة به واحسان اليه وان كرهه. فكثيرا ما يعاف المريض دواءه كراهة له وفيه شفاؤه . ومن الامثال . آخر الدواء الكى

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس احيانا على من يرحم

وليس الجهاد سوى هذا ـ والحكمة في مشروعية الجهاد في الاسلام تأمين القائمين بالدعوة اليه من غائلة المكابرين والمعاندين الذين يصدون عن سبيل الهدى ويقومون في وجه الداعى ويدفعون في صدره عن التبليغ دون اكراه الناس على الدخول فيه (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) ومن قال فى الاسلام بغير هذا فقد رمى بالقول جزافا وجنى

على التاريخ شر جناية

اتى المسلمون فى مكة ضروبا من الاهانة والعذاب والاستهزاء وآل الامر الى اخراجهم من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله . وجفاهم اهل قرابتهم وذوو أرحامهم والقوا عصا الرحيل بالمدينة وبلغوا مأمنهم ببلوغها . ولكنهم كانوا يشعرون بان لهم حقا غلبهم كفار قريش عليه كما يشعرون من نفوسهم بالعجز عن نيل ذلك الحق وهذا نهاية الذلة التي لا يرضى بها عاقل

ذلك ان البيت الحرام كان يحجه الناس على اختلاف قبائلهم واجناسهم ونحلهم . ويحرم بنو هاشم والمطلب وعبد مناف وامية وغيرهم من سائر بطون قريش حجه. ولاجرم لهم غير الاسلام وهم اهل السيادة فى الحرم وخدمة البيت المعظم وهذا الحرم الذى يأمن فيه كل ذي روح من الانسان والحيوان حتى الوحش لا يدخله المسلم الا خائفا يترقب . وقد منع كفار مكة بعض المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم . منهم نولبدبن لوليد . وعياش بن ربيعة

وهشام بن العاص . وكان رسول الله يدعو لهم في صلابة . واراهم كفار مكة كيف تكون القسوة في الظلم . واراهم المسلمون كيف يكون الصبر واحتمال المصيبة فى سبيل دينهم الحق - وبالجملة فكان المسلمون لا يجسر واحد منهم ان يدخل مكة او يمر قريبا منها خشية اهلها . فكان من الواجب ن يدفعوا عن انفسهم هذا العار وان يضعوا حدا لهذه النكبات التي يلاقيها من بمكة من المسلمين . ولهذا كانوا يتلقون بالفرح مثل قوله تعالى (أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله) (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) ولم يكن مجرد الكفر داعيا لقتالهم بدليل قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله

يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم منكم فانه منهم ـ وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مامنه)

فانظر الى محاسن الاسلام كيف لم يجعل الكفر سببا للانتقام من الكفار وانما كان مثار الامر بالقتال مباداة المشركين بالعدوان وتأمين الدعوة للمسلمين

شرع رسول الله يعلم كفار قريش كيف يسالمون من يمر بهم من المسلمين بإخافة كل ركب يذهب منهم الى الشام اوقافلة تؤوب بالتجارة ومصادرتها · لانه وجد محاسنتهم بترك الصادر والوارد من تجارتهم دون أن يمسهم بأذى لم تؤثر فيهم تأثيرا يحملهم على مقابلة الجميل بمثله . ولعلهم كانوا يظنون مسالمته لهم عن ضعف فعدل الى مخاشنتهم ببث السرايا لاعتراضهم

﴿ غزوة بدر الكبرى ﴾

كان بدء قتال النبي للمشركين قتالا يعتد به غزوة

بدر الكبرى وهى التى اعز الله بها الاسلام واظهر المسلمين على اعدائهم مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة عدد المشركين واستعدادهم ـ وهذه الغزوه هى التى نزل الوعيد بها الكفار قريش فى قوله تعالى (يوم نبطش البطشه الكبرى ن ه منه ه ر .

كانت معيشة قريش من التجارة وقد اخرجوا عيرا[١] لهم الى الشام لم يبق قرشى او قريشة لها مثقال فصاعدا الا بعثت به في تلك العير. وكان يرأسها ابو سفيان بن حرب فى بضعه وعشرين رجلا . فخرج اليها رسول الله فى السنة الثانية من الهجره فى مائه وخمسين من المهاجرين حتى بلغ موضعا يقال له العشيرة. فوجد العير قد فاتته. فرجع الى المدينة ينتظرها. فلما سمع برجوعها ندب اليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها . فاجاب قوم وتخلف آخرون استخفافا بشأن من فيها لقلتهم. فخرج لثلاث ليال خلون من شهر رمضان في ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا منهم مثنان واربعون من الانصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون

---

(١) العير القافلة

بعيرا يعتقبونها

احس.ابو سفيان بخروج رسول الله لاعتراضه فارسل يستصرخ قريشا فخرجوا على الصعب والذلول فى تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعماية بعير .ولم يعلم رسول الله بخروجهم. وبعد ان ستعرض رسول الله جيشه بث العيون لتأتيه بنبأ العير فجاءه نبأ قريش ـ وقد كان على اربعين ميلا من المدينة فجمع كبراء جيشه يستشيرهم وقال لهم ـ ايها الناس ان الله قد وعدنى احدى (الطائفتين انها لكم العير اوالنفير) وكان بعض الناس يريدون عرض الدنيا دون مشقه فقالوا هلا ذكرت لنا القتال فنستعد ثم قال المقداد بن الاسود يارسول الله امض لما امرك الله فوالله لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى (اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما ومقاتلون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فدعا له بخير ثم قال اشيروا على ايها الناس يريد الانصار فرد سعد بن معاذ رداً جميلا يفيد توطيد الانصار عزيمتهم على اللقاء

علم أبو سفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للقائه فتجنب طريقه وأرسل الى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فلم يقبل أبو جهل هذا الرأى وقال (لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم فيه ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا) ثم سار جيش المشركين حتى نزل عـدوة بدر القصوى من المدينة . ونزل المسلمون بعدوته الدنيا فى أرض سبخة بعيدة عن الماء فاصبح المسلمون عطاشا وقد أجنب بعضهم وخافوا عاقبة فقد ان الماء ووجد الشيطان مدباً للوسوسة فى قلوبهم فأرسل الله عليهم الغيث فشربوا وتطهروا واتخذوا الحياض كما قال تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام) ثم ارتحل جيش المسلمين الى أدنى ماء من بدر فقال الحباب بن المنذر يارسول الله (اهذا منزل انزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ؛ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟)

فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال يارسول

الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فاني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ماعداه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال عليه الصلاة والسلام لقد أشرت بالرأي . وفعل ما أشار به الحباب. ثم أشار سعد بن معاذ ببناء عريش على تل مشرف على ميدان الحرب يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فبني . ثم عدل النبي عليه السلام صفوف جيشه فجعل مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر الى جيش المشركين فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني) ثم وقف رسول الله يحرض الناس على الثبات والصبر ثم ذهب الى العريش يستنجز الله وعده والتقى الفريقان. وخرج رسول الله من العريش وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فلم تكن الا ساعة حتى هزم المشركون وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فكان القتلى من المشركين نحو السبعين فيهم كثير من اشراف قريش والمستهزئين الذين كانوا يؤذون الرسول

وأصحابه . وكان الاسرى سبعين قتل منهم رسول الله وهو راجع اثنين كانا من أشد الناس إيذاء له واستهزاء به « ولا موضع للخير فى استبقائهما » وهما عقبة بن أبي معيط والنضر ابن الحارث وأمر رسول الله بنقل القتلى من مصارعهم والقوا في قليب بدر. ثم أرسل عبدالله بن رواحه بشيرالأهل العالية وزيدبن حارثة بشيرالأهل السالفة[1] بالنصر الذى أحرزه فكان خبر هذا النصر سرورا لقلوب المسلمين وكبتا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا برسول الله وجيشه ابتغاء فتنة المسلمين عن دينهم شأن الاعداء فى اذاعة الشر

« اختلف » بعد ذلك « رأى » المسلمين في قسمة الغنائم فالشبان يقولون باشرنا الحرب فالغنائم لنا والشيوخ يقولون كنا لكم ردء افنشاركم فانزل الله تعالى أول سورة الانفال (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) فهدأت نفوس القوم وتركوا أمر الغنائم لرسول الله فعف عنها وقسمها

(١) تنقسم المدينة الى قسمين العالية والسافلة

على السواء الفارس مع الفارس والراجل مع الراجل واسهم لبعض من لم يحضر الحرب لقيامه ببعض المصالح لعموم المسلمين — ودخل رسول الله المدينة وقد تلقته الولائد بالدفوف يقلن

طلع البدر علينا من ثنية الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

لابد للباحث من الاعتبار بما كان في هذه الحرب من الحوادث فمنها — الوقوف على ما كان منه صلى الله عليه وسلم من استشارة أصحابه وعدم افتياته على الانصار بتفسير بيعة العقبة تفسيرا يطابق مايحبه حتي تتناول وجوب قيامهم للحرب معه في غير دراهم بل وكل ذلك اليهم — ومنها رده الأمر الى أهل الرأي والخبرة فعمل بمشورة حباب بن المنذر — ومنها أن عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب حمل من بين الصفوف جريحا يسيل مخ ساقة ووسده رسول الله صلى الله عليه وسلم ساقه وبشره بالجنة فقال وددت ان ابا طالب كان

حيا لبعلم انما أحق بقوله

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فان رجلا ينازعه الموت روحه لاتخرجه الحال التي هو فيها عن « رشده ولا تحدث وهنا في يقينة لخليق بلقب المسلم ووصف المؤمن » وجدير بان يكون الاسلام ممتزجاً بامشاجه ومنها أن عمير بن الحمام أخا بني سلمه (وكان بيده تمرات يأكلها) سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة ومن قتل قتيلا أعطى سلبه) فقال بخ بخ مابيني وبين ان أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء . ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتي قتل فجابش نفسه حاشيتاه اشباه هذا الرجل لا بد أن يكون النصر حليفه

الاسرى

لما دخل عليه السلام المدينة استشار أصحابه فيما يفعله بالاسرى فقال عمر بن الخطاب يارسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فاري أن تمكنني من فلان (وكان قريبا

له) فاضرب عنقه وتمكن حمزة من أخيه العباس وعليا من أخيه عقيل وهكذا حتى يعلم انه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك اسرى فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديد قريش وائمتهم وقادتهم. ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه . وقال أبو بكر . يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أري أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا فقال عليه السلام ان الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون الين من اللبن وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة. وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وان مثلك ياعمر مثل نوح (قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) ورأى عليه السلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلا من صاحبيه لان غرضهما عز الدين وان اختلفا في طريقه ثم قال لاصحابه أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم الا بفداء

ناحت قريش علي قتلاها شهرا ثم خافوا أن يبلغ النبي جزعهم فسكتوا وصمموا على ألا يبكوهم حتي أخذ وابثارهم وبلغهم أمر « الفداء » فتواصوا ألا يعجلوا بطلبه لئلا يغالى المسلمون فيه

منّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على جماعة من الاسري بالاطلاق دون فداء وبعثت قريش في فداء اسراها وكان الفداء أربعة الاف الى ألف درهم ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه[1] — ولما تم الفداء عاتب الله رسوله فى شأنه بقوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون)

« على » من كان فى قلبه ذرة من الشك فى أمر رسول

---

(١) انظر كيف رافق الاسلام الرقي من اول يوم

الله « أن ينظر بعض النظر في معنى هذه الآية واشباهها » .
هل ترضى نفس امرئ « يدعى انه رسول الله » بان يسجل على نفسه مايستحق عليه العتاب وفي مقدوره ان يجعله من المبرات التي يستحق عليها الثناء « ان أدنى النظر يهدي الى أن انسانا يصدر عن نفسه في قوله وعمله لا يقع منه مثل هذا التسجيل البتة . فما نراه من مثل هذا العتاب إنما هو صادر عن رب لا ريب فهو الناطق على لسانه صلى الله عليه وسلم بلا ارتياب فكيف يجد الشك سبيلا الي القلوب في صدقه عليه الصلاة والسلام

❋ غزوة بنى قينقاع ❋

ان الله اذ ختم على قلوب قوم مرت عليهم العبر فلا يفقهون لها معني ولا تفيدهم بصرا في مصير امورهم . ومن هذ القبيل بنو قينقاع من اليهود . فان غزوة بدر حركت من ساكن حقدهم على رسول الله وكان من حقها ان تكون درسا مفيدا يعلمهم ان الحق في قلة انصاره معان على الباطل مع كثرة من يوازره وان اظهار عداوتهم لرسول الله لا يفيدهم شيئاً وانهم اهون عليه من قريش

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ماتمر به الوحول

تعامى بنو قينقاع عن العبر فبدت البغضاء من افواههم لرسول الله. واصحابه وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الانصار باهانتها وداخل المسلمين الريب من امرهم وكان بين الفريقين عهد فانزل الله في سورة الانفال (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) بان تظهر لهم نبذ العهد ولا تبدأهم بالحرب على غرة فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد فاخشنوا له القول وتوعدوه. فنزل فيهم قوله تعالى (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا. فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولى الابصار) ـ وانى لمن كتب الله عليه الخذلان ان يعتبر؟

تبرأ عبادة بن الصامت احد رؤساء الخزرج من عهدهم وتشبث بحلفهم عبد الله بن ابى المنافق وقال انى رجل اخشى الدوائر وفيه نزل (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون

فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله ان يأتى بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين)

تظاهر بنو قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم فحاصرهم جيش المسلمين خمس عشرة ليلة وادركهم الرعب فطلبوا الجلاء على ان لهم النساء والذريه ولرسول الله واصحابه الاموال فاجيبوا وذهبوا الى اذرعات من بلاد الشام ولم يحل عليهم الحول حتي هلكوا . وخمس عليه السلام اموالهم وجعل خمس ذوى القربي لبنى هاشم وبني المطلب خاصة وقال انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد فى الجاهلية والاسلام هكذا مشبك بين صابعه

﴿ السنة الثالثه ﴾

جاءت بعد ذلك السنة الثالثة من الهجرة والمسلمون يزدادون تفانيا في نصرة الدين والاوس والخزرج يتبارون فى ارضاء رسول الله صلى لله عليه وسلم

وقد كان اليهود يزدادون بذاء وبغضا لرسول لله صلى لله عليه وسلم وكان من اشدهم كعب بن الاشرف وابو رافع

فقتلهما بعض الانصار وربما خاطر الواحد منهم بنفسه فاقتحم على الرجل حصنه وقتله وهو فى داره بين اهله وولده كما قتل ابن عتيك ابا رافع اليهودى

وقد حصل في هذه السنة عدة غزوات وسرايا احقها بالذكر غزوة احد

﴿ غزوة احد ﴾

وكان من امر غزوة احد ان قريشا قد سدت فى وجوههم ابواب التجارة وهى مرتزقهم ومنبع ثروتهم فاجتمع من بقى من اشرافهم واغروا ابا سفيان على حرب رسول الله وقد رضى كل من كان له شيء في العير التي خرج رسول الله للقائها ببدر بترك ربحه استعدادا للحرب وكان ربح المال خمسين الف دينار ـ فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف ومعهم حلفاؤهم من بني المصطلق ومن غيرهم وخرج معهم ابوعامر الراهب وهو أوسي فارق المدينة بغضا في رسول الله ومعه عدة ممن يذهب مذهبه ولحق بهذا الجيش جماعات من اعراب كنانة وتهامة وكان مع القوم القيان بالدفوف والمعازف

و خمور واصطحب الاشراف نساءهم « ليضرمن نار الحمية في قلوبهم فلا ينهزموا خوفا عليهن من النبي » وأصحابه

وكان العباس بن عبد المطلب عيبه نصح لرسول الله فقد كتب اليه يعلمه عمل قريش -- ولما قرب جيش الكفار استشار النبي أصحابه فيما يعمله فأشار جماعة ومنهم ابن أبي بالبقاء فى المدينة والتحصن بها فان قاتلهم الكفار قاتلوهم . وأشار الآخرون وهم الاكثر بالخروج للقائهم ومازالوا برسول الله حتي رضى بما رأوا فصلى الجمعة بالناس لعشر خلون من شوال وخطب الناس وحثهم على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ماصبرتم) ثم دخل حجرته وظاهر بن درعين وتقلد السيف والقي الترس وراء ظهره وخرج يريد القتال . ورجع المشيرون بالخروج عن رأيهم وردوا الامر لرسول الله فقال (ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتي يحكم الله بينه وبين أعدائه) وخرج فى الف رجل من المدينة ورأى جماعة من اليهود قد خرجوا معه فردهم (اذ مثل هؤلاء لا نؤمن غائلتهم) ثم استعرض الجيش استعراضاً دقيقا فكان يطلع على فرس الفارس ومة

تحتاج اليه الفرس وعلى جميع السلاح والادوات التى يحتاج اليها المحارب. ورد من استصغر سنه. وفى سحر ليلة السبت سار الجيش وانخزل ابن أبي المنافق بثلاثمائة من أصحابه وقال عصانى وأطاع الولدان . ولم يزل الجيش سائراً حتى نزل بالشعب من أحد (بالشمال الشرقى للمدينة) ونزل المشركون ببطن الوادى من قبل أحد فاستحضر رسول الله الرماة وكانوا خمسين يرأسهم عبد الله بن جبير. وقال لهم ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا . ثم دخل صفوف المسلمين وخطبهم فحثهم على الصبر والثبات والاحتمال في طلب الرزق وابتغائه « بطاعة الله لا بمعصيته ». وبعد ذلك ابتدأ القتال بالمبارزة ثم التحم الجيشان وحميت الحرب وكان نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الاشعار وكان للرماة أثر صالح فى هذه الحرب . وسقط لواء المشركين ولم يجسر أحد على حمله فولى المشركون الادبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والاسلاب ونسى الرماة أمر رسول الله «أن لا يبرحوا» أماكنهم فانطلق جماعة منهم ينهبون وذكرهم

من ثبت منهم فلم يرجعوا ـ وبذلك انكشف المسلمون وكر خالد بن الوليد فى جماعة من المشركين على من ثبت من الرماة وقتلهم وجاء الى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بمنازلة من امامهم فدهشوا وانتقضت صفوفهم واختلط الامر عليهم وضل عنهم رشدهم وهبوا الى القتال بدون روية فى الامر ولا شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً ـ ورفعت احدى نساء المشركين لواءهم فاجتمعوا حوله . وشاع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فزاد أمر المسلمين اختلالا وولى جماعة منهم الى المدينة واستحيوا أن يدخلوا فرجعوا ووقع رسول الله فى حفرة مغطاة مما حفره أبو عامر الراهب فغشى عليه وخدشت ركبتاه وكسرت رباعيته بحجر وشج وجهه وجرحت وجنتاه فقال (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم) ثم ضمدت فاطمة جراحه عليه السلام ثم استعان بطلحة على صعود صخرة كانت بالشعب وثبت رسول الله على هذا المصاب الجسيم ومعه جماعة من المسلمين فضلوا الموت على الفرار وبذلوا نفوسهم دون نفسه يحيطون به ويتقون عنه سهام المشركين

«فكانوا حرساً له وترسا يتقي بهم سلاح أعدائه» حتى اقد وجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة

من عادة النوائب الجسام اذا نزلت على غير استعداد أن «يختلط لها الامر ويفلت زمام التدبير من سلطة العقل» — ولكن هذه العادة ربما تخالفت فى أناس تدير جسومهم أرواح عالية قد ضمت ضلوعهم قلوبا لا تروعها المصائب «مهما» كان وقعها أليما

«ممن دخل تحت حكم العادة» جماعة من المسلمين حين رأوا هول المصاب «وقرع» أذانهم ما أشاع الكفار من قتل رسول الله «قال بعضهم لبعض» ارجعوا الى قومكم ليؤمنوكم (يريدون الرجوع عن الاسلام) وذلك لما أصابهم من الدهش والفزع — ومن القبيل الثاني جماعة منهم أنس ابن النضر قال ما نريد بالبقاء وقد قتل رسول الله قاتلوا على ماقتل عليه ـ وقذفوا بأنفسهم فى غمار الحرب يصافحون الموت« ويصارعون الحتوف . وبمثل هؤلاء يعتضد الحق ويقوى ساعده ويخذل الباطل ويهلك مساعده »

فكان الكفار في هذه الحرب في ظمأ « الى التشفي » لا يروى غلنهم الا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فاقبل أبي بن خلف منهم حين زلزل المؤمنون زلزالا شديداً يريد قتل رسول فقال عليه السلام خلوا طريقه حتي « اذا » قرب منه ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربة كان « فيها حتفه » ولم يقتل رسول الله سواه

بثبات رسول الله عليه الصلاة والسلام والنفر الذين معه تراجع قوم من المسلمين بعد هذا المصاب واكتفى المشركون بما فعلوا ومثل نساؤهم بقتلى المسلمين يتخذن القلائد من آذانهم وانوفهم ـ وقد بقرت هند زوج أبي سفيان بطن حمزة بن عبد المطلب وهو قتيل « واخرجت كبده تريد أكلها فلا كتها[١] ثم » لفظتها وقد « آلم » ذلك المصاب وذلك التمثيل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألم أشد »

انتهت هذه الغزوة بهذه « الرزية التي تضعف القوى

---

(١) ذلك بسبب حقدها عليه لقتله أباها يوم بدر فاغرت به وحشي فقتله غيلة يوم احد

عن احتمالها ان لم تكن مؤيدة» بمعونة الله تعالى . ففقد من حماة الاسلام نيف وسبعون كان لهم الاثر الجليل في اعزازالدين واعلاء شأنه . ثم تفقد رسول الله القتلى ودفن الشهداء كلهم أحد كل شهيد بثوبه الذى قتل فيه وصعد أبو سفيان على الجبل ونادى بصوت مرتفع (فقال ان الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل) ثم قال (انكم ستجدون فى قتلاكم مثله لم آمر بها ولم تسؤنى)

ان ثبات من ثبت من المسلمين اخاف المشركين فخشوا أن تدورعليهم الدائرة لو استمروا فيالقتال ورأوا اول الامر ان يكتفوا» بما احرزوا من النصر . فولوا وجوههم شطر مكة ولم يتعقبوا المسلمين على مابهم من التعب والجهد . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل لواءه «حذر ان يظن الاعداء بهم ضعفا فينقلبوا عليهم لاستئصالهم» فلم يبت بالمدينة الا ليلة واحدة . ثم نادى فيالقوم« ان يتأهبوا» للقتال والخروج معه وان لا يخرج الا من كان معه بالامس فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح وضمدوا جراحهم وخرجوا يريدون

القتال ابتغاء مرضاة الله الى حمراء الاسد «فقذف ذلك في قلوب اعداء الحق من الرعب ما ردهم عن عزمهم الذى كانوا في زعمهم عقدوه على الرجوع الاجهاز على المسلمين فقد كانوا ندموا على انصرافهم من مواقع الحرب وعرفوا خطأهم في كف القتال عن المسلمين» فاصروا على الرجوع . غير انهم خافوا سوء عاقبته لما علموا «بان المسلمين فصلوا عن المدينة في أثرهم» وظنوا انه عليه السلام جمع فل جيشه وضم اليهم من تخلف عنه ولا يستهين بقتال الموتور الا من سفه نفسه فساروا قدما الى مكة خشية ان تكون عليهم دائرة السوء وارسلوا من يثبط المسلمين عن مناهضتهم ويخوفهم بان قريشا قد جمعت الجموع وعادت لاستئصالهم . فقال لهم المرجفون (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) فزادهم ذلك شوقا الى الحرب ليشفوا اعداء الحق من مرض الغرور ويعلموهم ان الأمر لمن بيده عاقبة الامور

هذا التمحيص الذى ابتلى به المسلمون كشف ما كان يبطنه المنافقون والمرجفون بالمدينة ليكون المسلمون على حذر

منهم لا يركنون اليهم عند شدة ولا يثقون لهم بعهد

هذا من جهة ومن جهة اخرى كان « تأديبا من الله عرف به المسلمون بالمشاهدة عقبي ما يكون منهم من المخالفة لاوامره صلى الله عليه وسلم وطبع فى نفوسهم بالعمل ما كانت وعته قلوبهم بالقول من» وجوب المحافظة علي طاعة الرسول وامتثال امره فى كل ما أمر به فان « ما أصاب المسلمين في هذه الواقعة لم ينزل بهم الا بسبب مخالفة الرماة لامره صلى الله عليه وسلم وخلطهم عملهم الصالح وهو الجهاد بشهوة نفوسهم وهو سلب ما بايدى المشركين من المال وطموحها الى كسب المغانم ومتي شاب حب المال عملا من الاعمال أعقبته الخيبة والخبال فقد علم الله عباده المؤمنين ان لانجاة لهم من القتل الا بان يكونوا مخلصين له الدين » ـ وقد ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن سعد بن الربيع فوجد بين القتلى وفيه رمق فبلغ سؤآل رسول الله عنه فقال لمبلغه (قل لقومي يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدكم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندى عذر)

«هذا هو الوفاء بالعهد الذي ذكره الله في اوصاف المؤمنين (الموفون بعهدهم اذا عاهدوا) ـ هذا هو بيع النفس لله اذ اشتري من المؤمنين انفسهم ـ هذا هو فناء كل شهوة وكل هوى ـ في نصرة الحق الذي أنست به واطمأنت اليه قتيل كان له من الآم جراحه مايشغله عن كل شيء سواها ـ ينساها ويذكر العهد الذي اعطاه . والحق الذى ولاه . ويذكر به من يبقي بعده ويجعل الذكر اخر مايلقي الله عليه »

ولقد كان من وراء ذلك اليهود والمنافقون بالمدينة يبكتون المسلمين على خروجهم ويقولون (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا)

وقد انزل الله في عتاب المسلمين على ماصدر منهم من المخالفة ايات كثيرة منها قوله تعالى (لقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتي اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) وقوله سبحانه (اولما اصابتكم مصيبة

قد اصبتم مثليها[١] قلتم انى هذا : قل هو من عند انفسكم)

ولما كانت «طاعة الجنود» لقواد الحرب من اقوي الضمانات للظفر جاء في شرائع الامم كلها ما «يحتم على العساكر» الطاعة المطلقة لرؤسائهم لان مخالفة المرؤوس لاوامر رئيسه «مجلبة الفشل» «وعلة الاضطراب في العمل وعون العدو على بلوغ الامل»

السنة الرابعة

دخلت السنة الرابعة وقد «تمكن شيطان» الشرك فى رؤوس عدة من قبائل العرب «وغلى دمهم بالعدوة». فكان البعض «يني» أسديهم بجمع الجموع لقتال رسول الله حتي اذا ما علم بخبرهم واوطأ خيل سراياه ارضهم فروا فرارا الابق. وبعض القبائل كان يغدر بالركبان من اصحابه كهذيل. فكان ذلك «يدعوه الى ان يسير اليهم» السرايا لتأديبهم واذاقتهم جنى ما غرسته ايديهم

والذى يجدر بالذكر في هذه السنة امران ـ اولهما ان ماحل بالمؤمنين في احدا طمع يهود بني النضير فى ارواء غلتهم «بالتشفى» من رسول الله واصحابه فقد ظنوا في قناتهم لينا فغرتهم

---

(١) اى فى يوم بدر اذ قتلوا سبعين واسروا مثلهم

الاماني وائتمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو في دارهم واعتزموا على الغدر به بأن يلقي واحد منهم صخرة «عليه» من علو (والله من ورائهم محيط) فاطلع رسول الله على قصدهم نخرج من بين اظهرهم وتبعه اصحابه - ولما كان الجار الغادر الذي يتربص بجاره الدوائر ويتحين الفرص للغدر به كالدمل «في العين» او الغل في العنق لا راحة لصاحبه ما« دام بجانبه» . أرسل اليهم رسول الله بالخروج من بلاده - ولما تهيأ القوم للرحيل قال لهم ابن ابي وبقية المنافقين (لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون)

طمع بنو النضير بعهد من لم تعتد نفسه على الوفاء فنفضوا ايديهم من الرحال وصانحوا بها مقابض السيوف ولجأوا الى حصونهم وظنوا أنها مانعتهم من الله فقذف الله في قلوبهم الرعب وخذلهم ابن أبي الذي كانوا يتشددون به كما خذل بني قينقاع من قبل فطلبوا الجلاء على أن لهم ما حملت الابل من

أموالهم غير السلاح فرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك «وأخذوا» يخربون بيوتهم بايديهم كيلا ينتفع بها المسلمون وذهب بعضهم الى أذرعات وبعضهم الى قريظة -- وهكذا تكون عاقبه البغي (فلو بغى جبل على جبل لدك الباغي)

الامر الثاني — ان رسول الله خرج الى بدر في شعبان ينتظر جيوش أبي سفيان طبق سابق وعيده ولكن قريشاً كانوا في جدب فلم تسعد الحال بتجنيد جيشهم فاقام المسلمون بسوق بدر أياما يبيعون ويشترون وقد ربحوا في تجارتهم ربحاً لم يسبق له نظير ولم يحضره من كان يعتاد ذلك من قريش

السنة الخامسة

جاءت السنة الخامسة وفى رؤوس «بعض» العرب وقلوبهم من بغض رسول الله ما أكل قلوبهم — ففي هذه السنة بلغه عليه السلام ان الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق يجمع الجموع لحربه. فخرج له عليه السلام وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة وخرج معه جماعة من منافقى المدينة يريدون عرض الدنيا ولما التقي جمع المسلمين ببنى المصطلق عرض رسول الله

عليهم الاسلام فاعرضوا عنه وتراموا بالنبل ساعة ثم صدق المسلمون الحملة عليهم فقتلوا عشرة واستسلم باقيهم الاسر مع النساء والذرية وكانوا مائتي بيت توزعها المسلمون

بنوا المصطلق من أعز العرب داراً وأكرمهم بيوتاً وقد نزوا نزوة كانت عليهم ولا يقيل للكريم عثرة غير الكريم رأى رسول الله أن يستبقي القوم ويدخر يداً عندهم بان يحبب المسلمين «في المن» على من في أيديهم من النساء وتزوج رسول الله بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق فقال المسلمون صهار رسول الله لا ينبغي اسرهم فمنوا عليه بالعتق

فانظر الى هذه المجاملة الفائقة والى كرم الاخلاق كيف يكون ـ كانت جويريه أيمن امرأة على قومها فقد « جاء ابوها بفداء ليفكها من الاسر فادركه من عناية الله ما حببه في الاسلام فاسلم هو وابنان له واسلم باسلامه عدد كبير من قومه » فكانوا عونا للمسلمين بعد ان كانوا عليهم

كان في تلك الغزوة « شقاق » بين اجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه » وحليف للانصار فاستصرخ كل مواليه وتدارك

الامر رسول الله بحكمته حتى عاد الخصمان الى الحسنى . ولما بلغ بن ابي المنافق خبر الخصام قال (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) ووبخ من كان معه على برهم واحتفائهم بالمهاجرين وحثهم على ان لا ينفقوا على من بالمدينة منهم حتى ينفضوا الى قوم آخرين. فاسخط رسول الله قوله وهم عمر بقتله . فمنعه الرسول قائلا كيف ياعمر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه . وامر بالرحيل على غير ميعاد ليشغل الناس عن هذا الشأن واخبر الرسول اسيد بن حضير بما سمع فقال انت يارسول الله تخرجه ان شئت . هو والله الذليل وانت العزيز وكلم الانصار ابن ابي في ان يستغفر رسول الله فلوي رأسه . وفيه نزل (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون)

من راجع تاريخ الدول والممالك وجد ان ملكا لم يقم الا بفتك «القائمين به » بمن مهدوا لهم السبيل وكانوا لهم الساعد الاقوى في اقامة دعائم الملك ـ ولو اردنا ايراد الشواهد لما اعوزنا ذلك . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بالامر

لذي صدع به معاملة اصحابه معاملة الراعي «الرفيق في رعيته تغتفر السيئة ويضاعف الحسنة» يعصب الكسير ويجبر المهيض ويذود عنها الاذى حتي «شمل رفقه» اعداءه ومن يبطنون له «السوء» لم يخفض لهم جناحا ولم يعمد اليهم باذي ولكنه نور النبوة وهدى الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا

غزوة الاحزاب

وفي تلك السنة طاف طائف من اشراف جالية بني النضير على قبائل العرب يثيرون من حميتهم ويعدونهم المساعدة على محاربة النبي الا ... نزل حيي بن اخطب سيد بني النضير بكعب بن اسد سيد بني قريظة حتي عاهده على قتال رسول الله «وكان فيه أن ذهب المؤلبون الى مكة واستنجدوا بقريش لحرب رسول الله وقالوا ان دين قريش خير من دين محمد فانشطت قريش للحرب وكان غزوة الخندق في شهر شوال سنة خمس»

وقد علم رسول الله بتقدم ابي سفيان في عشر آلاف من قريش وغطفان وبني مرة واشجع وسليم واسد فاستشار الرسول اصحابه فيما يعمل في حربهم . فاشار سلمان الفارسي

بحفر خندق فى الجهة التى توتي المدينة من قبلها لحفر الخندق فى شمالها من الشرق الى الغرب ولقي المسلمون عناء فى حفره لانهم لم يعتادوا ذلك . وكان رسول الله يعمل بنفسه معهم في نقل التراب ـ وقد عجب جيش المشركين من مكيدة الخندق واستعد رسول الله بثلاثة آلاف مقاتل وصار المشركون يترامون مع المسلمين بالنبال وأكره عمرو بن عبد ود وآخرون خيلهم على اقتحام الخندق .وقتل علي عمرا فهرب اصحابه وهوى نوفل بن عبد الله فى الخندق فاندقت عنقه ـ وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع شريان الذراع . وكان على الخندق حراس بالليل ورسول الله يحرس موضعا منه بنفسه مع شدة البرد

لا يزال العدو مدرعا ثياب الصداقة حتى تنوبك شدة ـ فاذا نزلت بك نفض منك يده وخلق لنفسه من الاعذار ما «يستبيح به خذلانك ويستحل به العدوان عليك» على هذه الطريقة الممقوتة جري المنافقون فقد اظهروا ماتكنه ضمائرهم وقالوا (ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا) وانسلخوا من جيش المسلمين قائلين (ان بيوتنا عورة وماهي بعورة ان يريدون الا فرارا)

ولقد ضاعف الشدة علي المسلمين ما بلغهم من انضمام بني قريظة من اليهود الى احزاب العرب وقيامهم لحرب رسول الله لا يرقبون له عهدا ولا يراعون ذمة . وقد صاحب هذا الحصار ضيق علي فقراء المسلمين. فاتخذ رسول الله من جيشه حرسا علي المدينة خوفا من اليهود وارسل الزبير بن العوام يستجلي خبرهم . فوجدهم قد صاروا مع الاحزاب حربا لرسول الله ونالوا منه فاشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا اذ علموا ان العدو جاءهم من فوقهم ومن اسفل منهم وزاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون

اخذت رسول الله صلي الله عليه وسلم رقة على المسلمين وهو بهم رؤوف رحيم فاراد ان يفرق بين جموع الاحزاب ويصالح عيينه بين حصن سيد غطفان على ثلث ثمر المدينة فلم يقبل الانصار فابوا دون ذلك الموت وملاقاة الاهوال

لما ضاق الامر علي المسلمين وبلغت الشدة نهايتها وهم مع ذلك لم تزدهم هذه الشدة الاثباتا على دينهم. نظر الله اليهم نظر الرحمة وجزاهم على الصبر بفتح باب الفرج . وكان من

لطف الله أن اسلم غطفان ان اسلم نعيم بن م ... د ... ب
ساداتهم وكتم اسلامه واخذ يسعى بين المتحالفين ... يفرق من شؤونهم» وكان صديقا لقريش وبني قريظة. فتوجه الى بني قريظه وذكر صدقه في نصحهم واشار عليهم الا يدخلوا في الحرب حتي يستيقنوا ان قريشا وغطفان غير تاركيهم وان يأخذوا رهنا علي ذلك سبعين من اشرافهم وذهب الى قريش واسر اليهم ان يهود بني قريظه قد« ندموا علي ما فعلوا مع محمد وطلبوا ارضاءه بتدبير الحيلة لتسليمه رجالا من العرب ... اعناقهم ثم يكونون معه علي من بقي منهم» فعزموا علي ... سبعين سيدا من قريش وغطفان رهنا في ... ولا ... في الحقيقة الا ايد لموهم لمحمد» . فارسل ابو ... الى بني قريظه يطلب منهم ... ن ... الله فاعتلوا بالسبت وطلبوا رهائن حتي لا تتركهم العرب الى بلادهم . فايقن كل من الفريقين بصدق نعيم ... فريق الآخر فعجل العرب الرحيل قبل ... خ ... يتفق رسول الله مع اليهود علي ...

يقول لهم ابعث كل رجل منكم اخاه ليمسك به حذرا من ان يدخل بينكم عدو. و سر خالد بن الوليد ان يحمى ظهور القوم خشية ان يتعقبهم المسلمون. و رسل الله عليهم ريحا شديدة اكفأت القدور وهدمت الخباء وبذلك كانت هزيمة جيش الاحزاب. قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) وقد ابان الله تعالى فضل المؤمنين الصادقين في ايمانهم بقوله (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) فهكذا يكون الايمان وهكذا يكون اهله يؤمنون بوعد الله ورسوله في شدة الكرب وينتظرون نصره (ألا أن نصر الله قريب).

(غزوة بني قريظة)

فرح رسول الله والمسلمون بانصراف الاحزاب ورجعوا الى المدينة عازمين على خلع لباس الحرب ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يريح رسوله والمؤمنين من تلك

الاعداء الذين لا يلذ لهم الا «معاداتهم» وهم بنو قريظة ويطهر الارض منهم فأمره باللحاق بهم حتى يقضي الله بينه وبينهم

خرج رسول الله راكبا على حماره يؤم ديار بني قريظة ولواؤه بيد علي . وقال لاصحابه لا يصلين أحد منكم العصر الا في بني قريظة فصلى بعضهم العصر قبل وصولهم اليها وأخّر بعضهم الصلاة عن وقتها حتى بلغوها «بعد العشاء» . وتلاحق المسلمون وكانوا ثلاثة آلاف نخلع الرعب قلوب بني قريظة وسقط في أيديهم ولجأوا الى حصونهم. فحاصرهم رسول الله خمساً وعشرين ليلة ولما رأوا أنهم ليسوا بمعجزي الله ورسوله طلبوا الجلاء على ما أجلى عليه بنو النضير فلم يقبل رسول الله وقال لابد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيرا كان أو شرا فطلبوا أن يرسل اليهم أبا لبابة من حلفائهم الاوس واستشاروه في النزول على حكم رسول الله فقال انزلوا وأشار الى حلقه يعني انه يحكم عليهم بالذبح وندم على هذه الخيانة وربط نفسه بسارية مسجد المدينة حتى نزل فيه (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم)

وكانت نهاية أمرهم ان نزلوا على حكم رسول الله فأمر بكتافهم وجاءه رجال من حلفائهم الأوس يطلبون أن يعامل حلفاءهم كما عامل بني قينقاع حلفاء الخزرج أذوهبهم لعبد الله بن أبي فقال الا يرضيكم أن يحكم عليهم رجل منكم. قالوا بلى؛ واختاروا سعد بن معاذ وكان بخيمة بالمسجد «يعالج من أثر» السهم الذي أصابه يوم الاحزاب فحمل على حمار وبعد أن استوثق من نفاذ حكمه حكم عليهم بقتال لرجال وسبي النساء والذرية. ثم نفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم سعد فيهم ثم انفجر جرح سعد فمات رحمه الله

وقد أنزل الله تعالى في بني قريظة قوله «عند ذكر الاحزاب (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (حصونهم) وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا) وقد أراح الله المسلمين من شر اليهود غير بقية منهم بخيبر سيأتي حكمهم وقد خمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بني قريظة وأعطى للراجل

ثلث الفارس وأعطى النساء اللاتى كن يمرضن الجرحى

﴿ الحديبية ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على اسلام قريش وتأمين المسلمين فى الحرم وكان أحدهم لا يدخله الا خائفا يترقب. فرأى في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فرجا تحقق مناه وأخبر أصحابه أنه يريد العمرة. واستنفر الاعراب الذين حول المدينة خشية أن يناله من قريش أذى . فظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وقالوا . شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . فخرج عليه السلام فى ألف وخمسمائة من أصحابه ومعه زوجه أم سلمة. وأخرج الهدى ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا. ولم يكن مع أصحابه غير السلاح في القرب حتى اذا كان على مرحلتين من مكة . أخبر أن قريشا قد تجهزت للحرب وأن طليعتهم في طريقه. فعدل الى طريق أخرى حتى نزل بالحديبية. وجاء رسول قريش يسأله عليه السلام عن سبب مجيئه فأخبره انه جاء للعمرة . ولم تثق قريش بذلك الخبر

وأخذتهم العزة بالاثم. وقالوا أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً. تسمع العرب أنه دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا أبدا وفينا عين تطرف وتوالت السفراء من الفريقين وكان من السفراء من قريش عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف. فلما رجع من عند رسول الله قال والله يامعشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوما لا يسلمون بشيء أبدا فانظروا رأيكم فانه قد عرض عليكم [illegible] فاقبلوا [illegible] فاني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تنصروا عليه [illegible] قريش [illegible] ـ وكان من سفراء رسول الله عثمان بن عفان [illegible] [illegible] عشرة ليعلم قريشا مقصد رسول الله ويقوي قلوب المستضعفين من المؤمنين في مكة وقد آل الامر الى أن حبسته قريش هو ومن معه وبلغ رسول الله قتله فدعا الناس [illegible] على القتال فبايعوه تحت شجرة فكانت هذه البيعة سميت بيعة الرضوان وقد [illegible] [illegible] قريش حين [illegible]

وأرسلوا خمسين منهم ليباغتوا المسلمين فاسرهم المسلمون وهرب رئيسهم. وجاء جمع آخر من قريش فاسر المسلمون اثنى عشر رجلا وقتل من المسلمين واحد وقد خلع الخوف قلوب قريش. فارسلوا يعتذرون عما فرط ويستردون الاسرى على أن يصطلحوا أو يردوا عثمان ومن معه. وعرضوا شروط الصلح

رأى رسول الله انه اذا لم يقبل الصلح على الشروط التي عرضوها فانه يضطر الى امتشاق الحسام واراقة الدماء فى البلد الحرام والحرم الآمن وهذا مالا يرضاه. فرضى شروط الصلح التى عرضتها قريش في حين أنه لو نازل قريشا في هذا الحين لظفر بهم

كالصلح علي (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين (٢) وعلى أن من جاء المسلمين مسلما ردوه على قريش ومن جاء قريشا من المسلمين مرتدا لايلزمون برده (٣) وأن يرجع رسول الله بدون عمرة ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة باصحابه وقد أخلاها قريش لهم ثلاثة أيام بشرط أن لايكون مع النبي وأصحابه سوي القسى والسيوف في القرب

(٤) وأن من أراد الدخول فى عهد رسول الله من غير قريش دخل ومن دخل فى عهد قريش دخل فكان فى عهد رسول الله خزاعة وهم على دينهم وكتب الصلح على ذلك

هال المسلمين ما رأوا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصلح بعد ما كانوا يتوقعون من دخول المسجد الحرام آمنين خصوصاً وهم ينظرون الى خصومهم نظر القوى الجرئ الى الضعيف . وقد وطنوا أنفسهم على الموت واستعدوا لاحدى الحسنيين . فجاء هذا الصلح خيبا لاهوى أنفسهم فوجم أكثرهم له حتى أن رسول الله أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدى فلم يبادروا حتى رأوه قد حلق رأسه ونحر هديه ففعلوا كما فعل

جرى الصلح بين قريش ورسول الله على يد سهيل ابن عمرو من أشراف قريش وبعد تمام الكتابة جاء أبو جندل بن سهيل يحجل في قيوده هربا الى رسول الله ليحميه . فقال انا قد عقدنا بين القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم. وأمره بالصبر ووعده بالفرج القريب

وتمكن بعد ذلك أبو بصير عتبة بن اسيد الثقفي من الفرار الى رسول الله فرده مع قرشيين جاءا لذلك . فلما قارب مكة قتل أحدهما وهرب الآخر . وأقام أبو بصير بطريق الشام يقطع طريق قريش فارسل رجال قريش يستغيثون برسول الله ويطلبون ابطال الشرط القاضي برد من جاءه مسلما وأزاح الله عن المسلمين تلك الغمة التي لم يطيقوها

تذاكر المسلمون في رؤيا رسول الله وكيف انها لم تتم فكان من جواب أبي بكر لعمر (وهل ذكر انه في هذا العام ؟) وأثناء رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وفيها (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا) فسمي غزوة الحديبية فتحا ـ وقد حقق الله رؤيا رسوله وأتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين في عمرة القضاء وكانت بعد حول من الحديبية . وكان عبد الله بن رواحه بين يدي رسول الله في عمرة القضاء وهو داخل مكة يقول (لا إله الا الله

وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده)

من نظر الى صلح الحديبية نظرا سطحيا (كما نظر كثير من المؤمنين) يراه صلحا ثقيل الوطأة على النفوس لما فيه من رد من أسلم الى الكفار مع مظنة أن يفتنوه عن دينه . ولكن من نظر اليه نظر الحكيم (كما نظر أبو بكر) علم انه من أيمن الفتوح لما استتبع من أمن المسلمين على أنفسهم اذا جاءوا قريشا أو دخلوا الحرم كما استتبع مخالطة المؤمنين لغيرهم من الناس فكان ذلك الاختلاط سببا لاشراق نور الايمان فى قلوب كثير منهم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

كتابته صلى الله عليه وسلم الى الملوك

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الطرق قد أمنت سالكها من المسلمين وانه قد أمن جانب قريش لما بين الفريقين من الهدنة أراد أن يصدع بأمر ربه اذ يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك)

ولما كان تبليغ الناس كافة على سبيل الافراد غير ميسور

لجأ رسول الله الى تبليغ الملوك والامراء دعوته ودعاهم الى ماجاء اليه رجاء أن يجيبوا داعي الله اذا دعاهم لما يحييهم فيهتدوا ويهدي الله بهم أممهم ولكن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه فلم يجب الى الاسلام غير المنذر بن ساوى وجيفر وعبد ابني الجلندى ومن تبعهم من أقوامهم

كتب رسول الله الى كسرى وقيصر ملكي الدولتين العظيمتين بالمشرق والمغرب يدعوهما بدعاية الاسلام واتباع هدي الله مبشراً من أسلم بالجنة محذراً من خالف لا يرهب سطوة ملك ولا صولة جبار ـ ولم يقتصر على هذين الملكين العظيمين بل كتب الى غيرهما من الملوك والامرآء فكتب الى أمير بصري. والى الحارث بن أبى شمر أمير دمشق. والى المقوقس أمير مصر والى النجاشى ملك الحبشة والى المنذر بن ساوى ملك البحرين والى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان. والى هوذه بن على الحنفى سيد بنى حنيفة

مغزى كتبه عليه السلام

كانت كتبه عليه السلام الى الملوك تدور على الدعوة

الى الدين والتبشير والانذار. غير أن كتبه الى أهل الكتاب كقيصر والنجاشي والمقوقس كان فيها الوعد لمن أسلم بان يؤتى أجره مرتين. ولم يكن ذلك في كتب من كان على وثنية أو مجوسية — ومن هؤلاء الملوك من أسلم كالمنذر بن ساوى وجيفر وعبد ابني الجلندى ومنهم من أحسن الرد ومال الى الايمان لولا خوفه على نفسه من أهل مملكته كقيصر والمقوقس وقد بالغ النجاشي في التلطف وقال للرسول أنظرني حتى أكثر الاعوان والين القارب - ومنهم من أساء الرد ككسرى ولم يقتل من حاملي كتبه صلى الله عليه وسلم غير الحارث بن عمير الازدي وكان حاملا الكتابه عليه السلام الى أمير بصرى فلقيه شرحبيل بن عمرو الغساني وعلم انه من رسله عليه السلام فأمر بضرب عنقه — وهنا نورد لك حديث البخاري بشأن كتاب قيصر لما فيه من العبرة

حدث البخاري باسناده الى بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذ فيها أبا سفيان وكفار قريش فاتوه وهم بايلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم انه نبي فقال أبو سفيان قلت أنا أقربهم نسباً فقال أدنوه مني وأقربوا أصحابه فجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه قل لهم اني سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبني فكذبوه قال فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه ثم كان أول ما سألني عنه أن قال كيف نسبه فيكم. قلت هو فينا ذو نسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله قلت لا. قال فهل كان من آبائه من ملك. قلت لا. قال فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم. قلت بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون قلت بل يزيدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه. قلت لا قال. فهل كنتم تهتمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. قلت لا. قال فهل يغدر قلت لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال ولم تمكني كلمة ادخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال فهل قاتلتموه قلت نعم قال فكيف

كان قتالكم إياه. قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه قال ماذا يأمركم؟ قلت يقول أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا مايقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه. فذكرت انه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هـذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله وسألتك هل كان في آبائه من ملك. فذكرت أن لا.قلت فلو كان في آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا. فقد أعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك اشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم اتباع الرسل .وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت انهم يزيدون. وكذلك أمر الايمان حتي يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك

هل قاتلتموه فذكرت ان نعم وان الحرب بينكم وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لاتغدر وسألتك بم يأمر فذكرت انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الاوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فان كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم انه خارج لم أكن أظن انه منكم ـ فلو اني أعلم اني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث فيه دحيه الى عظيم بصرى فدفعه الى هرقل فقرأه فاذا فيه

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدي . أما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم اليريسين . ويا أهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا

فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الاصوات وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا لقد أمر (١) أمر ابن أبي كبشة. انه يخافه ملك بني الاصفر فما زلت موقنا انه سيظهر حتى أدخل الله علي الاسلام

ومن حديث صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهري أن هرقل أذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بابوابها فغلقت ثم اطلع فقال يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وان يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها قد غلقت فلما رأي هرقل نفرتهم وايس من الايمان قال ردوهم علي وقال اني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت [illegible] فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل

ووجه عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب الى المقوقس

---

(١) يعني فخم وعظم ذكره وأبو كبشة رجل كان يدعي انه يخاطب من [illegible] ابن أبي كبشة

أمير مصر من جهة قيصر وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من
أتبع الهدى أما بعد فأني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم
يؤتك الله أجرك مرتين وأن توليت فعليك إثم القبط
ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة الآية) فأوصله اليه حاطب
بالاسكندرية فلما قرأه قال ما منعه أن كان نبيا أن يدعو على من
خالفه وأخرجه من بلده فقال حاطب ألست تشهد أن عيسى
ابن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه
أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكم الله حتى رفعه الله اليه قال
أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم ـ ثم قال اني قد نظرت
في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى
عن مرغوب فيه . ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن
الكذاب ووجدت معه آلة النبوة . اخراج الغائب
المستور والاخبار بالنجوى وسأنظر ثم كتب رد الجواب
يقول فيه

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس

عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت لك بغلة تركبها والسلام

﴿ السنة السابعة ﴾

كان جماعة من اليهود بمدينة خيبر التي تبعد نحو [illegible] ميل من الشمال الغربي للمدينة وكانوا من أشجع اليهود وأقواهم شوكة كما كانوا من أشد الناس إيذاء لرسول الله فقد كان سيدهم أبو رافع بن أبي الحقيق من [illegible] مهيبا فيهم لما له من الثروة وكان يحرض على قتال [illegible] [illegible] فاستأذن له عبد الله بن عتيك الخزرجي و[illegible] حصن [illegible] بين أهله وولده ليكفي رسول الله شره

ولما قتل أبو رافع أتى اليهود بقلائد الرياسة لأسير بن رزام [illegible] على رسول الله [illegible] بجمع العرب [illegible] رسول الله [illegible] وأصحابه

الى الصلح ووضع الحرب أولا . فرضى وسار مع أصحاب رسول الله للصلح . ولكن الشيطان دلاه بغرور فندم على ما فرط منه وهم بالغدر باصحاب رسول الله فبادروه وأصحابه بالقتال (وكان ذلك فى السنة السادسة)

كان من شأن قريش وغيرهم من العرب وغزوة الحديبية شغل لرسول الله عن النظر فى أمر اليهود من أهل خيبر والمشى اليهم بالسيوف لعقابهم على ما بدو منهم من بغض المسلمين وتألب القبائل عليهم بعد [illegible] لهم طول العفو والصفح ليسلوا سخائم الاحقاد من تلك القلوب القاسية

نعم لان رسول الله والمسلمون لهم لينا جاوز حده وحاسنوهم محاسنة فائقة او صف فلم يزدهم ذلك اللين الا قساوة ولم تزدهم تلك المحاسنة الا جفوة - فلم يجدوا سيفا يجرد على رسول الله والمسلمين الاشحذوه ولا سهما يراش الا [illegible] حتى لم يبق لرسول الله وأصحابه في قوس التصبر منزع . فعمدوا الى حسم دائهم وتأديبهم والسيف نعم المؤدب

لليهود في كل زمان ومكان شهره بالثروة لهذا رغب الخالفون من الأعراب الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية أن يعرضوا أنفسهم على رسول الله يريدون الخروج معه لقتال أهل خيبر رجاء أن يصيبوا من متاع الحياة الدنيا مايسد جشعهم ولم يكن من همهم في الحقيقة أن يخرجوا لاحدى الحسنيين ولهذا قطع رسول الله أمل المخلفين عن الحديبية من الغنيمة وقال لاتخرجوا الا رغبة في الجهاد اما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً وأمر مناديا ينادي بذلك

سار النبي حتى نزل على خيبر فحاصرها المسلمون وافتتحوها حصنا حصنا وعهد الى علي بن أبي طالب وغيره من المسلمين الا حصنا وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلا ومن اليهود ثلاثة وتسعون [illegible] ثم أمر من كانوا بالحصن الأخير بالتسليم على أن يحقن دماءهم وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم ولا يصطحب الواحد منهم الا ثوبا واحداً على ظهره فأجابهم رسول الله الى ذلك وهذه عاقبة البغي الوبيل

والذي يجدر بالمؤرخ أن يفطن اليه في هذه الغزوة

أمران — أحدهما . انه صلى الله عليه وسلم جعل الغنائم في هذه الغزوة حجرا محجورا على المخلفين عن غزوة الحديبية ليعلم المؤمنين أن المؤمن من حقه أن يخاطر بنفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى لا سعيا وراء حطام يفنى — وأن تكون نيته موجهة الى ما هو خير وأعظم أجرا . وأن من يضن بنفسه في سبيل الله ويرى بذلها مغرما عليها حيث لا يرجوا نفعا عاجلا فيقعد خلاف رسول الله في وقت الشدة حقيق بأن يقطع أمله مما يتعجله من الغنى الذى يرجوه من الجهاد في الرخاء — ثانيهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل المجانيق فى حصار حصون خيبر وبين مما أصابه من الغنيمة فى بعض حصونها ولم تكن من صنع العرب ولم يكن لهم بها عهد وانما هى من صنع اليهود فيؤخذ من ذلك من الاخذ بأساليبهم والانتفاع بنتائج أفكارهم وما صنعته أيديهم

فهل لمن ينفرون من المسلمين عن اتباع غيرهم فيما ثبت نفعه من علم وصناعة ويرون تعاطيهم لما يفعلونه ...

أولوهم زراية على الدين وجحداً لأوامر الله : أن يضعوا رسوله بالمكان الذي وضعه الله من دينه ، ثم يضعوا أنفسهم من رسول الله ومن دين الله بالمكان الذي يستحقونه ثم ليظهروا أشد رعاية لدين الله من رسوله أو ما هم عليه عادة لمن قالوا إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

بعد أن تم الفتح رأى رسول الله أن يقر أهل خيبر في ديارهم ويترك الارض في أيديهم يزرعونها بشطر ما يخرج منها . وقد استتب فتح خيبر صالح يهود فدك وتيماء ووادي القرى وترك الامر بهذه الارض في أيدى أهلها بشطر ما يخرج وأخذ رسول الله بهذه الأرض ...

وبتسليم أظافر هؤلاء اليهود الذين حول المدينة أمن المسلمون شرهم وأمنوا من تولى نصرتهم ومعاونتهم ، ولم لا يخرى كيد الخائنين

وهنا حكمة سياسية أملاء الاستعمار الذين يظنون أنهم نوابغ لم تنبغهم الأوائل . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن يهود خيبر أهل بصر بالزراعة يحسنون القيام عليها

واجلاؤهم من ديارهم حسب الشرط الذي سلموا عليه ضار بمصلحة البلاد مفوت خيراً كثيراً على المسلمين ـ وهو ضار باليهود من جهة أخرى لانهم سيخرجون الى بلاد مستظلة بحكم غير المسلمين (وهم الرومان) وهم فل حرب قد نهكت قواهم وفتت في عضدهم ـ فاذا خرجوا وهم على مثل هذه الحال كانوا عرضة للفناء وطعمة للموت كما كان غيرهم

لهذا كل رأى (وقد امن شرهم) ان يستبقيهم لينتفع المسلمون من ثمرة أعمالهم من جهة [illegible] ثر في تحسين حالهم حتى يكون ذلك أعون لهم على البقاء ومكافحة الفناء فما أحكم هذه السياسة ! وما اعظم هذا الرفق !

كانت الحوادث تمر والاسلام لا يزداد الا قوة. وبعض العرب يلمحون ضياء الايمان فيقبلون عليه بعد طول عنادهم ومجاحدتهم ـ ومن اولئك القوم خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعثمان بن أبي طلحة فقد هداهم الله الى الاسلام عقيب فتح وادي القرى وسر بهم رسول الله سرورا عظيما

وقد صار خالد وعثمان وعمرو فيما بعد من كبار قواد الجيوش الاسلامية الفاتحين للممالك الناشرين للاسلام الموصلين محاسنه الى أهل الاطراف النائية عن مكة

الفتح الاعظم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشوق الى فتح مكة وعمرانها بالاسلام لانها مثابة للناس واليها حجهم واهلها من قريش قدوتهم في الدين والنسك ولا تنفرد كلمة الاسلام بالسؤدد والاستعلاء الا اذا طهرت الكعبة من الاوثان وانتظم اهلها في سلك المسلمين — ولكن رسول الله وهو أوفي الخلق بالذمم كان يمنعه وفاؤه من مبادأة القوم بعدوان والله يدبر لرسوله ما فيه الحسنى وهو لا يشعر

كان بمكة بنو بكر في حلف قريش وبنو خزاعة في حلف رسول الله . وبين الفريقين دماء لم تجمد و حقاد ثارت لم تخمد نيرانها . فوقف بكرى يتغنى بهجاء رسول الله . فقام اليه خزاعى وضربه فخنق بنو بكر وبيتوا بني خزاعة واعانتهم قريش بالسلاح والعدة فاصابوا منهم نحو عشرين قتيلا — وخف

عمرو بن سالم الخزاعي الى رسول الله يطلب المعونة على الانتصاف من الغادرين الناكثين للعهد. وأحس عقلاء قريش قبيح جرمهم وجنايتهم بقتل احلاف رسول الله . فاوفدوا أبا سفيان ليؤكد العهد ويزيد في مدة الحلف وهو لا يدري بعمرو بن سالم. فقال له رسول الله هل من حدث فقال لا فقال عليه السلام نحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد . وقد جهد ابو سفيان أن ينال تجديد العهد حتى لا يعتدي رسول الله قريشا بسوء وأراد أصحاب رسول الله [illegible] ذلك [illegible] وانصرف الى مكة أسوأ منصرف واتهمه قومه بالاسلام فتنسك عند الاصنام نفيا للظنون عنه

اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وجد لما يحس به في صدره من الضيق من بقاء الكعبة مجتمعا للاصنام فرجا وكان حريصا على افتتاحها دون حرب او اراقة دم تعظيما لحرمة البيت فامر أصحابه بالتجهز واستنفر من حول المدينة من الاعراب. وخرج في عشرة آلاف وكتم عن العامة الوجهة التي يريدها وقصد مكة وقد سمعت قريش بخروج

محمد بجيش عظيم لا تعلم وجهته فارسلوا أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليكشفوا لهم الخبر. فجاءوا موضعا يقال مر الظهران قد نزل به رسول الله واصحابه واوقدوا عشرة آلاف نار لالقاء الرعب فى قلوب أهـل مكة وعثر حرس رسول الله على ابي سفيان ومن معه فأخذوهم اليه واسلم ابو سفيان وكان قد لقى رسول الله قبـل ذلك عمه العباس مسلما يريد المدينـة مع عياله فبعث رسول الله بالعيال الى المدينـة وطلب الى العباس ان يذهب معه الى مكة

اصبح رسول الله يريد الدخول الى مكة فامر العباس ان يحبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتي ينظر المسلمين في مرورهم عليه حتى مرت به قبيلة الانصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سـعد يا أبا سفيان (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة) فلما جاء رسول الله اخبره أبو سفيان بمقالة سعد فقال كذب سعد هذا يوم يعظم الله فيـه الـكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة . ودخل رسول الله من اعلى مكة وخالد بن الوليد من اسفلها ونادى مناديه في الناس بأن من دخل

داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . واهدر دم جماعة اشتدت نكايتهم في الاسلام وان تعلقوا باستار الكعبة

حار رجال قريش حين رأوا مكة وقد دخلت عليهم جيوش المسلمين من اقطارها - ومن الجنون ان يفزعوا الى سلاح - غيران غير اغمارامنهم حاولوا صد خالد وقتلوا من جيشه اثنين وقتل منهم اربعة وعشرين . ولم يلق رسول الله كيدا حتى وصل الحجون حيث ركزت رايته فاستراح قليلا ثم ذهب الى البيت وهو يقرأ سورة الفتح وطاف بالبيت سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وجعل يطعن الاصنام بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل وما يبدئ الباطل وما يعيد وامر بتطهير الكعبة من الاوثان وكان حولها ثلاثمائة وستون صنما وفي ذلك اليوم وهو يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان صارت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا وتلاشت عبادة الاوثان الا قليلا وقد طهر الله منها بلاد العرب بعد زمن يسير

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وقد ظن الناس بقريش الظنون وانتظروا ما يفعله رسول الله بهم بعد ان بالغوا في ايصال الاذى اليه والى أصحابه ولا ذنب لهم الا أن يقولوا ربنا الله وأخرجوه ثاني اثنين. وقد اداله الله منهم وأمكنه من نواصيهم ولكن رسول الله أظهر من كرم الاخلاق ماهو لائق بمن أحسن الله تأديبه مثله. فقال يا معشر قريش ماتظنون اني فاعل بكم. فقالو خير أخ كريم وابن أخ كريم. فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء. ثم خطبهم خطبة أبان فيها كثيراً من أحكام الاسلام

يدرك الانسان باللين والمجاملة ما لا يبلغ بالخشونة فقد رأى كثير من قريش مقابلة اساءتهم باحسانه وجميل عفوه وصفحه. وكان ذلك سبباً لأن قذف الله في قلوبهم الايمان فاندفعوا يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان وطاعة الله ورسوله بعد أن شملهم العفو وحقنت دماؤهم وصاروا في مأمن من العقاب لا سيف يروعهم ولا سوط يسوقهم — وقد استأمن من أهدرت دماؤهم واستشفعوا اليه

بذوى قرباهم ومابينهم وبينه من الرحم وأنابوا الى ربهم وأسلموا له . فآمنهم ـ وبعد أن تمت بيعة الرجال بايعة النساء على أن لايشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يعصين الرسول فى معروف. ثم أمر بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة فأذن وكان يوما مشهوداً . اذهب الله فيه غيظ قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم وكبت الشرك وحزبه وكان أمر الله مفعولا

غزوة حنين

أنجدت أخبار فتح مكة واتهمت وتسامع العرب قاصيهم ودانيهم بان مثابة الناسكين منهم وملتقى الركبان من جميع قبائلهم وهى مكة. قد صارت فى قبضة المسلمين وان رسول الله قد تمكن من ناصية أقوى أعدائه شكيمة واجرئهم على حربه وهم قريش ـ وظنوا انه ولا بد معاتب القبائل التي تبرعت بعدائه مظاهرات على حربه فنفخ الشيطان في معاطس ثقيف وهوازن وخيل لهم ان رسول الله مصبحهم في عقر دارهم اذا لم يدهموه في مكة ـ فاجمعوا أمرهم على مباغتته صلى الله عليه وسلم

وانضم اليهم قبائل من العرب. منهم بنو سعد بن بكر أظآره عليه السلام . وولى أمر الحرب مالك بن عوف النصرى فصف نساء المقاتلة خلفهم ووراءهن الابل ثم البقر ثم الغنم ليقاتل كل انسان عن أهله وماله وخرج رسول الله في اثنى عشر الفاً فيهم بعض المشركين ومن هم حديثو عهد بكفر فصفهم وفرق الالوية ـ وقد خرج نساء مكة يردن الغنيمة. وقد أعجب المسلمين كثرتهم وقالوا لن نغلب من قلة

التقى جيش المسلمين والكفار عند حنين وفاجأ مقدمة المسلمين كمين من الكفار فانهزم من فاجأه الكمين وتبعهم في الهزيمة من خلفهم واختل نظام الجيش ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً وضاقت عليهم الارض بما رحبت ـ وبلغ فل المنهزمين مكة واستبشر الذين في قلوبهم مرض وظنوا بالمؤمنين الظنون . كما ساء ذلك بعض من هم على شركهم من قريش وكرهوا خذلان رسول الله والمسلمين حرصاً على شرفهم القومى ونعرة الى العصبية ـــ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فثبت رسول الله في جماعة من المهاجرين

والانصار. والعباس آخذ بلجام بغلته وأبو سفيان بركابه والعباس ينادي بصوته الجهير أصحاب رسول الله فتراجع كثير منهم وثبتوا للقاء. وباعوا نفوسهم في سبيل الله فانكشف الكفار وتمت عليهم الهزيمة وفروا لا يلوى أحدهم على أهل ولا يعطفه ولاء ولا يثنيه مال واحتجز المسلمون نساء القوم وذراريهم وأموالهم

ان نزول الشدائد بذوى البصائر درس نافع يستفيد منه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فالمسلم الذى يتخذ من كل نازلة عظة يجد فى انهزام المسلمين يوم حنين على كثرتهم أموراً

أولها — ان الاغترار بالكثرة عند التقاء الصفوف واعتقاد ان الكثرة مناط رجحان الكفة عند الزحف مع غض النظر عن القاهر فوق عباده أمر لا ينبغي أن يجول بخاطر مسلم وانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء. فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين. وقد اتاح الله النصر للمسلمين في مواطن كثيرة كانوا فيها أقل عدداً

وعدة ولاظهير لهم الا الصبر ولا مدد الا طلب احدى الحسنيين

ثانيا — ان رماء الاعداء بجيوش من الاخلاط المختلفى الوجهة المتباينى المقاصد لايغنم قائده غير الفشل وهذه سنة الله في خلقه . فقد كان هذا سبباً في خذلان دارا الثالث أمام جيش الاسكندر المقدوني مع تفاوت مابين الجيشين وبعد مابين ضخامة المملكتين وهذا كان شأن جيش المسلمين في حنين

ثالثها - ان هذه الكارثة بينت للمسلمين العدو العاقل من المشركين الذين أحزنهم ماحل بالمسلمين فى بدء الحرب من الانهزام. وميزته عن الصديق الجاهل ممن لا كوا كلمة الاسلام ولم يمس الايمان أفئدتهم وغرتهم الامانى فجهروا بما تكن ضمائرهم يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره

غزوة الطائف

ذهبت طائفة من المنهزمين من ثقيف وهوازن وغيرهم الى الطائف وتمنعوا بها لشدة المنعة لما به من حصون وحاصرهم

رسول الله وحاول نقب حصنهم من الدبابات [1] فلم يغن ذلك شيئاً فاخذ في قطع نخيلهم وكرومهم فناشدوه الله والرحم الا ماترك ذلك. فترك القطع ومضى بعد أن أقام ثمانية عشر يوما وقد استشار بعض ذوي الرأى من أصحابه فأشار عليه بالرحيل عنهم لأن القوم بحال لاتخشى معها غائلتهم

تقسيم الغنيمة

رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجعرانة وأحصي السبي والغنيمة وفرق ذلك في مسلمة الفتح وبعض [illegible] مكة والمهاجرين والاعراب الذين حضروا معه وترك الانصار

لم يدرك الانصار رضى الله عنهم الحكمة في هذه القسمة فتناجوا بما يشف عن استيائهم من أن رسول الله لم يضرب لهم في غنيمة هذه الحرب التي أبلوا فيها بلاء حسناً بسهم مع إيثاره لمشركي قريش وحديثي العهد بالاسلام. وبلغ رسول الله ذلك فأحضرهم وعدد لهم ماحصلوا عليه بوجوده بينهم من العزة

---

(١) آلات أشبه بالعربة المغطاة مجلدة من داخلها يسيرها الرجال وهم في باطنها حتي تلتصق بالحصن فينقبوه وهم داخلها لا يصيبهم شيء

واجتماع الشمل والهدى بعد الضلال وبين لهم انه بسط يده بالعطاء للمشركين ومسلمة الفتح قصد تأليفهم وازالة استيحاشهم وانه انما وكلهم الى اسلامهم ثقة بما يعلمه في نفوسهم من صحة العقد ودعا لهم بخير . فطابت نفوسهم بذلك وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا

(رد السبي)

تشتت هوازن في القفار بلا مأوى ولا أهل ولا ولد فضاقت عليهم الارض بما رحبت واعتزموا بعد ذلك على مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رد ما أخذ من الغنائم عليهم ولا يستشفعون اليه بغير ما عرف من كرم أخلاقه ولين جانبه . فبالغوا في الندم على ما كان من نزوتهم وقالوا ان في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك (يعنون نساء بني سعد) فخيرهم بين السبي والمال فاختاروا رد السبي وألا يحكموا في شاة ولا بعير . فستار ثم جاءوا منه ذلك بعد صلاة الظهر فقام وقال لاصحابه (أما بعد فان اخوانكم قد جاءوا تائبين واني قد رأيت أن

أرد عليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يبقي على حظه حتي نعطيه إياه من أول مايفيء الله علينا فليفعل) فقال المسلمون ما كان لنا فهو لرسول الله . وامتنع جماعة من الاعراب فاستخلص رسول الله مابأيديهم قرضاً ورد الله على هوازن نساءهم وأولادهم

فانظر الى هذا الرفق والحنان بالقوم الذين كانوا بالأمس ألد أعدائه والمغيرين الطالبين استئصال نفسه واحباط مسعاه وتفريق كلمة الجامعة ! اللهم ان هذا القلب الرحيم لاينحنى عليه غير ضلوع الذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ـ وحقيق حامله بان يوصف بما وصفه الله تعالى بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)

اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ورجع الى المدينة وقد لانت شرة العرب وانخفضت حدة عنادهم وخيلائهم ونفضوا من رؤوسهم حمية الجاهلية وصارت وفودهم ترد على رسول الله من كل جانب هؤلاء مسلمون وأولئك مستأمنون. وفي ضمنهم وفد ثقيف. وكان عاقبة أمر القوم ان أسلموا بعد التأبي والامتناع وهدموا صنمهم وذلك بعد قدمه

رسول الله من تبوك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل الوفود بما جبل عليه من كرم أخلاق ولطف معاشرة ويتألفهم ويدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويعلمهم مايحتاجون اليه من أمور دينهم أو يصحبهم بمن يقوم بهذا الامر بينهم في بلادهم . فكان أحدهم يقدم على الرسول وهو أبغض الناس اليه في نفسه . وينصرف عنه وهو أحب الناس اليه . ومن يهد الله فما له من مضل

غزوة تبوك

في السنة التاسعة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتماع الروم بتبوك في جمع كثير يريدون غزو رسول الله في عقر داره فاراد ان يلاقيهم في حدودهم من بلاد الشام قبل ان يأخذوا على المسلمين اقطار الحجاز وشعابه ـ ولعامه ببعد الشقة أعلم الناس بمقصده وامرهم بالاستعداد واستنفر أهل مكة وغيرهم من قبائل العرب . وكان الناس في عسرة وجدب وحر شديد

وهنا ظهر المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا .

فقد انفق أهل اليسار من المسلمين من سعة وبعضهم لم يدخر

لنفسه درهما ولا دينارا . وكانوا يجهزون المعدمين الذين لايجدون ما ينفقون بالكراع والعدة . وكان النساء يبارين الرجال في الانفاق. فكن يرسلن بما يقدرن عليه من حليهن . وقد تخلف كثير ممن حولهم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق وقالوا لا تنفروا فى الحر وجاء طائفة من المعذرين من الاعراب ليؤذن لهم. وقد قبل منهم رسول الله معذرتهم واذن لهم بالعقود خلافه . وقد عاتبه الله تعالى في ذلك (عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى تبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ـ وقد تخلف بعض صادقى الاسلام ومنهم من لحق برسول الله ومنهم من أقام الى رجوع جيش الاسلام من هذه الغزوة

اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الجيش ثلاثون ألفا ولا عهد للعرب بمثل هذا العدد من قبل ولما وصل الجيش الى تبوك بعد الجهد والمشقة لم يجد جيشا كما سمع . فاستشار رسول الله اصحابه فى الدخول الى بلادالشام فاقتضى حذرهم من سلوك بلاد لم يعرفوها. ولم يكن لهم بها فئة تحميهم ان ..

ولا انصار يساعدونهم. ان يشيروا عليه بالرجوع. فعاد بالجيش بعد أن صالح صاحب ايلة وأهل جرباء وميناء على الجزية

كان مثل المنافقين الذين تخلفوا بالمدينة أيام غزوة تبوك مثل بني اسرائيل في اتخاذهم العجل حين فارقهم موسى لميقات ربه ـ فقد أسس المنافقون مسجدا غير مسجد رسول الله وقالوا ندعو رسول الله ليصلي لنا فيه . وندعو أبا عامر الراهب ليصلي لنا فيه أيضاً . ولا غرض لهم الا تفريق كلمة المسلمين . فاعلم الله رسوله بسوء مقصدهم فقال (والذين اتخذوا مسجدا ضررا وكفرا وتفريقا بين المسلمين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يعلم انهم لكاذبون لا تقم فيه ابدا) الآية . فامر رسول الله بهدمه والله لا يهدى كيد الخائنين

وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من المخلفين اعتذارهم على عذر انتحلوها وابى ثلاثة لم يكذبوا في عذرهم وهم كعب بن مالك الخزرجي . ومرارة بن الربيع . وهلال بن امية الاوسيان . فامر هم رسول الله بالعزلة حتى يقضى الله

فيهم ومنع المسلمين من كلامهم. ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم

وفى هذه السنة حج ابو بكر بالناس ولحقه علي رضى الله عنه ليقرأ على الناس ثلاث عشرة آية من اول سورة براءة نزلت بعد مسير ابي بكر . وهى تتضمن نبذ العهد لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وامهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها كيف شاءوا . واتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم ونادى ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان

حجة الوداع

وفى السنة العاشرة حج رسول الله حجة الوداع وهي الحجة التى لم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها. وفيها علم الناس مناسكهم وخطبهم خطبة الوداع الشهيرة ابان فيها كثيرا من الحلال والحرام وأوصى المؤمنين بكثير من الوصايا التي تكفل لهم السعادة ما عملوا بها

واليك نصها

-﴿ خطبة الوداع ﴾-

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله . اوصيكم عباد الله بتقوى الله واحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير

(أما بعد) يا أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فأني لا أدري لعلى لا القاكم بعد عامى هذا في موقفى هذا

(أيها الناس) ان دماءكم وأموالكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . الا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها. وان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث وان مآثر الجاهلية

موضوعة غير السدانة والسقاية (والعمد) قود . وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر . وفيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية

(أيها الناس) ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوي ذلك مما تحقرون من أعمالكم

(أيها الناس) ان النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة . والمحرم . ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت اللهم اشهد

(أيها الناس) ان لنسائكم عليكم حقا. ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم . ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم. ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن

عليكم ان تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عوار لا يملكن لانفسهن شيئاً اخذتموهن بامانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا.ألا هل بلغت.اللهم اشهد

(أيها الناس) انما المؤمنون اخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه الا عن طيب نفس منه ألاهل بلغت اللهم أشهد فلا ترجعوا بعدي كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا ـ كتاب الله وأهل بيتي ألا هل بلغت اللهم اشهد

(أيها الناس) أن ربكم واحد وأن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب .أ كرمكم عندالله اتقاكم.ليس لعربي علي عجمي فضل الا بالتقوي أهل بلغت ألاهم اشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب

(أيها الناس) أن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر

حكايات ونوادر القليوبى

« فى »

...وف والمواعظ والحكم والاداب

تأليف

مولانا الشيخ احمد شهاب الدين القليوبى
رحمه الله آمين

« تباع بالمكتبة المحمودية »
لصاحبها ومديرها : « محمود على صبيح ».
ميدان الجامع الازهر الشريف بمصر

(المكتبة والمطبعة المحمودية)